

عبد الرحمن قلاوون

عبد الرحمن قلاوون

رواية

باذر الخير

الكتاب: باذر الخير

المؤلف: عبد الرحمن قلاوون

ISBN: 978-2-9568172-4-6

البريد الإلكتروني:

ar.kalawoun@gmail.com

الطبعة الأولى

1443 هـ – 2021 م

القياس: 19.4 x 13.6

عدد الصفحات: 240

تصميم الغلاف:

Motion Eye Productions

الإهداء

إلى أسماء التي تحمّلت انشغالي عنها بهذه الرواية بصدر رحب

والمنصور ذي الخمس سنوات الذي ساهم ببعض تفاصيلها

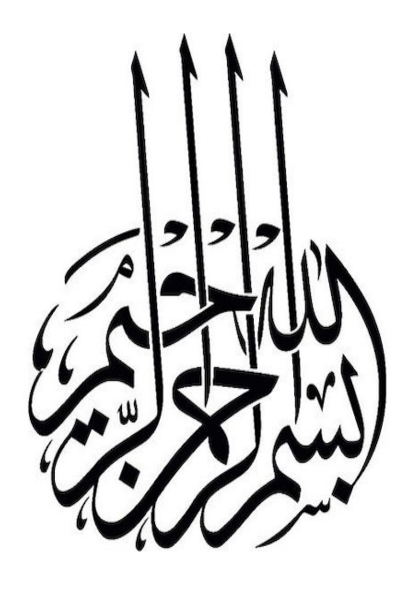
وبشّار الذي شجّع على كتابتها ونقّح

والأصدقاء الذين ترقّبوها بفارغ الصبر

وإلى باذري الخير في كلّ زمان ومكان

وإليك أيّها القارئ الكريم...

أهدي هذا الإصدار.



تنبيه: شخصيات أبطال هذه الرواية ومحطّاتها ثمرة خيال، بينما أسماء المناطق والسياق التاريخيّ والاجتماعيّ والسياسيّ فهي في الغالب حقائق وقعت بالفعل.

(1)

المشبوه

لندن، سنة 1940...

- أنظر، إنه ذلك الرجل هناك... صاحب القبعة البنية.
- ذاك الذي يخفي وجهه بقبّعته ويتلفّت يمنة ويسرة... ممكن جداً.
- لا بل أكيد، وإلّا فلماذا يتلفّت هكذا؟ ثمّ هذه الندبة على خدّه الأيمن... ألا تراها مريبة؟
- هممم، لا أدري ما أقول... ربما كانت نتيجة عراك في حانة ساعة سكر.
- لا يبدو لي أنها أثر جرح سكين. ربما كانت بسبب شظية زجاج، أو بسبب انفجار، لا أدري!
- وماذا أنت فاعل الآن؟
- سأبلغ الشرطة السرّيّة.

- وأي شيء ستقول لهم؟
- سأقول إنّه ربما يكون جاسوساً للألمان، وأنّه يخطط لشيء مريب.
- وهل تخالهم سيصدقونك؟
- لا أعرف، ولكن لا أظنّهم سيتهاونون في هكذا أمر وبخاصّة مع اشتداد وتيرة الصدام مع ألمانيا في الحرب القائمة. وسأخبرهم أيضاً عن لكنته الغريبة والأدوية والعقاقير التي يشتريها. صدّقني، يستحيل أن يكون هذا زبوناً عادياً. إنّه يخفي سرّاً ما، بل قل خزانة أسرار! لقد شككت فيه من أوّل مرّة دخل فيها الصيدلية، وعودته المرّة الثانية أكّدت لي هذه الشكوك.

(2)

مع الدبّ وجهاً لوجه

العام 1409، في قرية على سفوح جبال الألب...

حمل ألبان فأسه وزاده وخرج يقصد حماره ليفكّ وثاقه وهو يدندن بلحن مرح في صباح رائق جميل. حمّل حماره واتجه قاصداً الغابة الواقعة عند السفح المقابل للقرية يحتطب ويكثر قدر المستطاع ليعود فيبيع ما يجمعه فالطلب أصبح كثيراً مع دنوّ فصل الخريف، وشتاء هذه الجبال قاس لا يرحم.

نظر لزوجته وهي قابعة في الحظيرة تحلب نعجتهم الوحيدة التي اشتروها بعد جهد وصبر وانتظار طويل. ودّعها من بعيد ومضى في طريقه وصور ذكريات كثيرة تمرّ أمام عينيه كأنّها أحلام، تذكّره فتوّته واقترانه بكلوتيلد، هذه الفتاة التي سحرت لبّه وملكت قلبه منذ أن التقاها أول مرّة قبل ثماني سنوات. وتذكّر الأشياء الكثيرة التي جمعته بها، من فقدان أحد الأبوين في سنّ مبكّرة إلى الطبقة الاجتماعية

الفقيرة فالمبادئ المثالية التي يعتنقانها ويتمنّيان لو تسود العالم وليس انتهاء بكون جدّ كلّ منهما وصل هذه الناحية من جبال الألب منذ سنوات طوال هرباً من حرب هناك أو شدّة هنالك.

ولم يستيقظ ألبان من أفكاره وخيالاته إلا وقد وصل الغابة التي يقصد حتّى أنّ حماره توقّف عن المسير بسبب جذع شجرة كان قد سقط حديثاً قاطعاً الطريق على الحمار ومن سواه. قفز ألبان بجدّ ونشاط وأعمل فأسه في الجذع ثم انتقل إلى غيره فغيره حتّى نال منه التعب فاختار فرجة واسعة نوعاً ما بين الأشجار تتوسطها شجرة صنوبر متوسّطة الحجم قيّد إليها حماره وأسند إليها ظهره وشرع يتناول طعامه؛ خبز صنعته زوجه قبل يومين وقطعة لحم مجفّفة وإجاصة كانت بمثابة هديّة ذكرى قرانهما اشترتها له كلوتيلد قبل أيّام. لكنّ شيئاً غريباً قطع عليه طعامه وحبل أفكاره...

صوت استغاثة!

من أين يأتي... ومن يكون؟

انتزع ألبان فأسه وهرع يجري باتجاه الصوت؛ كان لفتاة صغيرة مذعورة على ما يبدو، يختلط من حين لآخر بصوت رجل ربّما كان كهلاً، ثمّ بدأ يتعالى صوت ثغاء الماعز شيئاً فشيئاً.

وما هي إلّا لحظات قليلة حتّى وصل إلى مصدر الصوت، فإذا راع يحاول أن يدفع دبّاً فتيّاً دنا من ماعزه ليفترسها فهربت تلك وتوارت خلف الأشجار وبقي الرجل المسكين يحاول إنقاذ نفسه وابنته، على ما يبدو، من براثن هذا الدبّ الهائج.

لم يتردد ألبان بالقفز أمام الدب والتلويح له بالفأس، ولكنّ الأخير لم يعبأ بها، بل دنا منه ليضربه فتفادى الحطاب ضربته ثمّ هوى على الحيوان بفأسه فأخطأه. وتبادل الطرفان الهجمات والصرخات حتّى وجدت الفأس طريقها أخيراً إلى كتف المفترس البرّيّ فولّى هارباً وترك خلفه رجلاً يلهث من التعب وينزف وجهه وذراعه.

- شكراً لك أيها الشاب الغريب، لقد خاطرت بحياتك لإنقاذنا.
- لا تشكرني يا عمّ، بل اشكر الصغيرة التي صرخت بكلّ ما أوتيت من قوّة حتّى سمعت استغاثتها فلبّيت.

- إنها ابنتي فيفيان، لقد كانت شجاعة بما يكفي لكي لا يغمى عليها عند رؤية هذا الدبّ المخيف.
- من حسن الحظ أنّه دبّ فتيّ، وإلّا لكنّا جميعاً الآن وجبة سائغة لأسنانه الحادّة. هذه الحيوانات تصبح أشدّ خطورة مع اقتراب الشتاء، فهي بحاجة إلى الكثير من الطعام قبل أن تخلد إلى سباتها الطويل.
- أنت محقّ في هذا. اسمح لي يا...
- ألبان، اسمي ألبان.
- اسمح لي يا ألبان أن أشكرك من صميم قلبي على صنيعك معنا. أنا آسف حقّاً لأنّي لا أملك المال لأجازيك، والماعز تفرّقت عندما هاجمنا الدبّ فعليّ بالتالي أن أذهب باحثاً عنها لأجمعها مجدّداً قبل أن يجدها مفترس آخر، ولكن اسمح لي أن أنظّف وأضمّد جراحك قبل أن تغادر فهذا أقلّ القليل.
- لا تلق إليها بالاً أيّها الرجل الطيب، ليست بالخطيرة.
- لست قلقاً عليك، فلا أظنّك ستموت بسببها، إنّما أخشى أن تتعفّن فتسوء حالتها، ولكن لنتفاءل ونرجو ألاّ يتخطى الأمر

ندوباً ترافقك بقيّة عمرك. فيفيان يا ابنتي ناوليني حجراً كلسيّاً وابحثي لي عن الأعشاب الثلاث التي نداوي بها جراح الماعز.

لم تتردد الفتاة الصغيرة فأسرعت تجلب ما طلب أبوها الذي تناول منها الحجر ففتّته ثمّ خلطه بالأعشاب وطحنها جميعاً وأغلق بها جراح الحطاب بعد أن غسلها بالماء، وانتهى بأن ضمّدها وودّعا ألبان مكرّرين له الشكر والعرفان.

أمّا هو فقد عاد إلى حيث ترك حماره فوجده لا يزال على حاله كأنّه ما تحرّك خطوة قطّ، فرمى بفأسه أرضاً واستلقى يأكل الإجاصة ولكنّه أحسّ بطعم غريب، فألقاها من يده وشرع يشرب ما لديه من الماء حتّى أتى عليه كلّه ثمّ استلقى وغطّ في نوم عميق.

(3)

في مركز الشرطة

- أعد عليّ اسمك.
- توماس يا سيّدي، توماس رايت.
- وما هذه القصة التي رويتها للمساعد؟
- إنّها الحقيقة يا سيّدي. أنا واثق بأنّ هذا الرجل جاسوس للألمان.
- وما الذي يجعلك واثقاً إلى هذا الحدّ.
- لقد جاء إلى الصيدليّة حيث أعمل أكثر من مرّة، وفي كلّ منها يأخذ كمّيّة كبيرة من المنبّهات. وعيناه يا سيّدي، عيناه حمراوان متعبتان كأنّه لم ينم منذ أسبوع أو أكثر!
- هذا لا يكفي للجزم بكونه جاسوساً للألمان.
- صحيح يا سيّدي، ولكنه يتحرّك دائماً بريبة كمن يخفي شيئاً خطيراً. ولكنته أيضاً تشي بوضوح أنّه ليس من لندن، بل ليس حتّى من الإنجليز. ثم تلك الندبة في وجنته، إنّها أشبه ما تكون

بجروح الحروب. ربّما كان ممّن شارك في الحرب العظمى، من يدري.

- وكم تقدّر عمره يا سيّد رايت؟
- لست أدري، ربما في العقد الثالث أو الرابع من العمر.
- إن كان ثلاثينيّاً فلن يكون ممن قاتل ضدّنا في الحرب الأولى، أمّا إن كان أربعينيّاً فهذا ممكن، ولكنّه يبقى احتمالاً ضئيلاً.

إسمعني جيّداً يا سيّد رايت، لقد أحسنت بمجيئك إلى هنا، ولكن ما ذكرته لا يكفي لتحريك عناصرنا المستنزفين الذين يصلون الليل بالنهار في تقصي الجواسيس واصطيادهم. أبق عينيك مفتوحتين جيّداً وراقب هذا الرجل، وحاول أن تقتفي أثره إن عاد إليك مجدّداً لعلّك تجد دليلاً واضحاً يمكّننا من الإيقاع به. واحذر أن يتفطّن إليك فتضيع جهودك كلّها سدى!

- مفهوم يا سيّدي، بإمكانكم الاعتماد عليّ. سوف يظهر لكم توماس كم هو مخلص ومتفان في الدفاع عن وطنه وشعبه.
- شكراً لك سيّد رايت. نهاراً سعيداً.
- نهاراً سعيداً سيّدي المفتّش، إلى اللقاء.

(4)

استيقاظ

هواء بارد يلفح الوجه، حفيف أشجار، غربان تنعق هنا وهناك فتغطي بأصواتها على زقزقات العصافير المتقطّعة. بدأ ألبان يحرّك جسمه الذي بدا له وكأنّه تخشّب، وأطرافه التي بدأت تتخدّر من البرد، أو هكذا أحسّ.

جلس بصعوبة، نظر حوله وإحساس غريب يسيطر عليه:

"أين أنا؟ ولم لا أرى الحمار؟ أيعقل أنّ أحداً سرقه أثناء نومي! وما هذا، يبدو أنّي غرقت في نوم عميق حتّى أتى الليل وطلع النهار ولم أشعر بشيء، هل يعقل هذا؟!".

نظر عن يمينه فلم يجد فأسه، لا شيء إلّا شفرة صدئة متآكلة؛ "من الذي يهزأ بي؟".

نظر عن يساره، يكاد يكون متأكّداً أنّه المكان الذي نام فيه، ولكن...

شجرة إجاص! لا أذكر أنّي نمت بجانب شجرة إجاص، ولا أنّ شجرة الصنوبر كانت بهذا الحجم!

لا أدري، قال ألبان لنفسه، ولكن لأبحث الآن عن الحمار، أو فلأعد إلى البيت فإنّي أكاد أتجمّد من البرد.

كان الدوار الذي يلفّ رأسه بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً. نهض من مكانه وجرّ قدميه متثاقلاً ليقصد قريته... تعثّرت قدماه كثيراً على الطريق، فحيناً بعظام حيوانات ناخرة يبدو من حجمها أنّها كبيرة، وحيناً بمزع قماش وجلد تالفة. أحس وكأنّه طفل صغير يتعلّم المشي حديثاً، ولكنّه سرعان ما استعاد توازنه ورجعت إليه قوّته ولم يكن يزعجه إلا جوعه الشديد وعطشه، فجلس بعد ساعة من السير ليرتاح عند منعطف ساقية صغيرة أسفل الطريق المؤدي إلى قريته، وأخرج من قميصه إجاصة كان حملها معه قبل أن يغادر المكان الذي رقد فيه وأخذ يأكلها بعد أن شرب من الماء حتّى ارتوى.

كان مع كلّ قضمة يفكّر في زوجته ويتعجّل الوصول إلى بيتهم الصغير حتّى يضمّها بين ذراعيه ويبثّها شوقاً دفيناً كأنّ عمره ألف عام

لا يوماً وليلة. وأخذ يتخيّل غاليته كلوتيلد وهو يعطيها الإجاصة وسرورها بها، ويفكّر في الوقت عينه في الجواب الذي سيقدّمه عندما تسأله عن حماره، وعن الحطب الذي لم يحضره، وعن مبيته خارج البيت، وعن... وعن... وعن... آه من النساء وتساؤلاتهنّ وتخيّلاتهنّ! لكن لا بأس، فبهنّ تصفو الحياة وتحلو.

كان ألبان يقلّب كل هذ الأفكار في رأسه وهو ينظر يمنة ويسرة باستغراب. يمشي يتلفّت حوله فيحسّ نفسه غريباً عن هذه الدنيا. الجبل هو نفسه، والقرية هي هذه التي بدأت تتراءى لعينيه لا محالة، ولكن... ليست كما تركها.

"لا بدّ أنّي أتخيّل أشياء لا وجود لها. لا بدّ أنّي مريض. هل لسعني شيء أم هو التعب والإرهاق؟ أم هي آثار الساعات الطويلة التي نمتها في الغابة؟".

وصل ألبان بعد جهد جهيد في تبيّن ملامح الأزقّة والدور إلى منزله وقد نفد صبره واشتدّت لهفته، ولكنّه فوجئ بعدد من الأولاد يلعبون أمام بيته، والذي طرأت عليه تغييرات عديدة.

"متى حدث كلّ هذا، ومن هؤلاء الأولاد وماذا يفعلون هنا؟".

وقف عند عتبة الباب ونادى بصوته العذب:

- كلوتيلد؟ عزيزتي، لقد عدت.

ظهرت امرأة غريبة تحمل في يدها قدراً يبدو أنّها كانت منهمكة في تنظيفها وقالت له:

- مرحباً، هل بإمكاني مساعدتك؟
- هل كلوتيلد هنا؟
- لا أعرف أحداً بهذا الاسم، لا بدّ أنك أخطأت الدار أيّها الغريب.
- أنا أقصد صاحبة البيت، كلوتيلد. أنا زوجها ونحن نسكن هنا منذ سنوات.
- أنا آسفة، ولكن أرجوك أن تنصرف وإلا اضطررت للصراخ واستدعاء الرجال، هذا بيتنا الذي نسكن فيه منذ عشرين سنة، ولا يوجد أحد باسم كلوتيلد. فأرجوك عجّل بالانصراف وإلّا...
- ماذا تقولين يا سيّدتي... بيتكم، منذ عشرين سنة! لقد غادرته البارحة فقط فكيف أصبح بيتكم!

- أنا حقّاً آسفة، ولكني مضطرة لمناداة الجيران.

- أنا الذي سأناديهم، جميعهم يعرفونني هنا.

وأخذ ألبان ينادي بصوت مرتفع وهو يتلفّت إلى البيوت المجاورة رجاء أن يأتي أحد لمساندته: "يا روبن، يا بول، يا غيوم، يا نساء الحي أين أنتم، تعالوا واسمعوا هذا الكلام الغريب. يا كلوتيلد، أين أنت يا عزيزتي؟".

خرج أناس كثيرون إثر الضجّة التي أحدثها، ولكنّ الغريب أنّه لم يتعرّف على أيّ من الوجوه، لا الرجال ولا النساء ولا حتّى الأطفال.

"ما الذي يجري بحقّ، وهل أنا في كابوس مريع؟".

ما هي إلّا دقائق حتّى حضر رجل سمين يبدو أنّه زوج المرأة التي تحتلّ بيته، والتمّ الجيران ليشاهدوا هذا الرجل الغريب ودعواه الأغرب منه، خاصّة أنّها تكسر رتابة عيشهم وتشكّل مادة دسمة لأحاديثهم وأسمارهم مدّة من الزمن.

قال الرجل بعدما سمع من زوجته خلاصة الموقف:

- أنصحك يا سيد بأن تعجّل بالانصراف، فإنّنا أناس محترمون وعندنا أشغال كثيرة ولا وقت لدينا لنضيّعه. إن كنت بحاجة إلى المال فليس بهذه الطريقة يكتسب، وإن كنت أخطأت الطريق إلى قريتك وبيتك فأنصحك بتعجيل مغادرتك القرية قبل أن يحلّ الظلام. وإن أبيت إلّا الاستمرار بهذا الهراء اعتبرناك مجنوناً وقيّدناك إلى سارية عند أطراف القرية حتّى تشفى أو تموت فاختر بسرعة ما أنت فاعل.

حاول ألبان أن يجادل الرجل ولكن دون جدوى، وممّا زاد الأمر تعقيداً دخول المتفرّجين على الخطّ وتأييدهم كلام الرجل السمين. هنا لم يجد ألبان حلّاً سوى الابتعاد ليستجمع أفكاره ويحدّد خطواته... هل جنّ حقّاً، وهل من الممكن أن توجد قرية بينها وبين قريته كلّ هذا الشبه المريب؟

- حسناً سأذهب، ولكن أرجو أن تدلّني على الرجل الذي باعك البيت فإنّي لا بدّ أجد عنده ضالّتي.
- لا بأس، إنّه العجوز هوغس، تجده في بيته قرب الجسر فهو رجل كبير في السنّ ولا يغادر منزله إلّا قليلاً.

لم يضيع ألبان وقته وتوجّه من فوره ناحية الجسر... "هوغس"، لا يعني له الاسم شيئاً ولكن لا يهم، فلن يكون هذا أغرب ما يواجهه في هذا اليوم. وما هي إلّا دقائق حتّى كان يقف أمام البيت المقصود. طرق الباب مرّة، ثمّ مرّة أخرى، ثمّ سمع صوتاً يدعوه إلى الدخول.

- من أنت أيّها الشاب، وكيف يستطيع هوغس العجوز مساعدتك؟

- أبحث عن امرأة كانت تعيش قرب البئر شرقيّ القرية. في بيت يسكنه الآن رجل سمين عنده زوجة جميلة والكثير من الأولاد. أظنّ اسمه...

قاطعه العجوز قائلاً:

- راؤول. إنّه راؤول السمين، هكذا يناديه جميع السكان هنا. لقد بعته البيت منذ عشرين سنة تقريباً.

- وهل كان هذا بيتك أيها الشيخ.

- أجل ولا. في الواقع لقد اشتراه عمّي قبل زمن بعيد، ولكنّه مات ولم يترك خلفه ذريّة فآل إليّ بحكم أنّي أكبر أبناء إخوته سنّاً.

كنت حينها أعمل تاجراً فجعلت من هذا البيت مستودعاً للحبوب والبضائع التي أبتاعها، حتّى تقدم بي العمر وتجاوزت الستين فتركت هذه المهنة إذ لم يعد لي جلد على السفر ولم تعد لي حاجة بهذا البيت فبعته.

أمّا راؤول فكان قد انتقل حديثاً إلى هنا قادماً من الجنوب، من ميلان على ما أظن، لا أدري ما الذي جاء به ولكن كان يبدو عليه أنّه يملك الكثير من النقود من شكل ملابسه وتعددها وكذلك حصانه. وسرعان ما اتخذ ركناً في ساحة القرية يبيع فيه اللحم والدواجن، بالنقود أو يقايضه بمختلف الأغراض التي تصلح للبيع. وكان أحياناً يشتري الجبن من السكان ثمّ يحمله إلى المدن البعيدة ليبيعه فيها، فعرضت عليه شراء البيت لما أعلمه من ثرائه فلم يتردّد في القبول. لقد كانت صفقة رابحة بالنسبة لرجل مثلي في ذلك الوقت.

- وقبل عمّكم، من كان يملك البيت؟
- كنت طفلاً صغيراً عندما اشتراه، ولكن أذكر ممّا التقطته أذناي من الأحاديث في المناسبات بعدما كبرت قليلاً أنّه كان لامرأة

جميلة تركها زوجها فحزنت واغتمّت، ولم يطل بها الأمر حتّى هزلت ومرضت وماتت كمداً عليه. وكان الناس يشفقون عليها وينصحونها بالزواج من غيره، إذ لا بدّ أنّه هجرها ورحل مع فتاة أخرى، ولكنّها أبت أن تسمع لكلامهم وحلّ بها ما حلّ. وكان عمّي ميسوراً فاستغلّ الفرصة واشترى منها البيت في أيامها الأخيرة، أو هكذا ادعى... في الواقع لا أحد يعرف الحقيقة ولكنّ أحداً لم يطالبه به فبقي الحال على ما هو عليه حتّى مات وانتقل من بعده إليّ.

- وهل تذكر قبل كم من السنوات حدث هذا؟ أي فقدان المرأة زوجها.

- أراك مهتمّاً بها أكثر من اهتمامك بالبيت أيّا الشاب. لا تصغ إلى الأساطير التي يتناقلها الناس، فلا وجود للأشباح، وكلّ ما يحكونه عن صوت وقع أقدامها في البيت وصوت نحيبها وبكائها ما هو إلّا تخيّلات وأوهام. أو أنّها امرأة راؤول نفسها التي تبكي وتنوح ولكن تخشى أن تواجه زوجها فتدّعي أنّه شبح تلك المسكينة. لقد استعملت هذا البيت كثيراً عندما كنت تاجراً وكنت أحياناً

أبيت فيه ولم أر أيّ شيء غريب. أمّا مالكة البيت فلا أعرف عنها إلّا ما أخبرتك به. كان عمري حينها لا يتجاوز العشر سنوات وأنا الآن في الثمانين، وهذا وقت طويل كفيل بمحو الذكريات.

- أشكرك على وقتك أيّها العجوز، وأرجو أنّي لم أتعبك بكثرة الكلام.
- على الرحب والسعة يا ولدي، فأنا كما ترى طاعن في السن ولا يزورني الكثير من الناس، فلا أكاد أتحدّث مع أحد إلّا الجدران والكلب الهرم. ولولا أنّ ابنتي الصغيرة ترسل ابنتها لتطمئنّ عليّ لما علم بحالي أحد من الناس.
- سامحني أيها العجوز هوغس، فإنّ عندي ما يشغلني ولا بدّ لي من الذهاب. أتمنّى لك وقتاً هادئاً.
- شكراً لك. وأنصحك أن تبدّل ضمادة جرحك هذه فإنّها متّسخة جدّاً وليس هذا مناسباً للجراح.

غادر ألبان مسرعاً، لم يكن عنده موعد مع أيّ كان، ولكنّه كان بحاجة لأن يخلو بنفسه ليحاول فهم ما يجري. ثم الضماد... كيف نسي الضماد!

خرج من القرية تابعاً مجرى النهر حتّى وصل إلى منعطف تقع على طرفه بركة كبيرة. كان قد نسي تماماً قصّة الضماد الذي وضعه له الراعي بعد صراعه مع الدب. أخذ ينزع القماش ببطء وهو ينظر إلى وجهه في صفحة ماء البركة الراكد، ولشدّ ما كانت مفاجأته عندما وجد آثار مخالب الدب قد جفّت تماماً مخلّفة ندوباً على خدّه الأيمن. خلع قميصه وفكّ ضماد ذراعه فوجد الندوب كما في وجهه جافّة كأنها حصلت له منذ وقت طويل، ولكن... ما هذا؟!

(5)

لقاء

"هل أنا في حلم؟ أم تراني جننت! أم أنا ميّت وهذا شبحي يطوف الأرجاء؟ لكنّ الناس يرونني وأراهم، وأشعر بكلّ ما يشعر به الأحياء، حتّى الجوع الذي يعصر معدتي والبرد الذي يتغلغل في جسدي... آه يا إلهي، كم أنا بحاجة إلى أجوبة".

أسئلة كثيرة تعصف بذهن ألبان، وليس يقلّ أحدها غرابة عن الآخر. وآخرها هذه الندوب على وجهه وذراعه. إنّه يذكرها جيداً، ويذكر الراعي الطيّب الذي ساعده في تنظيفها ومعالجتها وكيف ضمّدها بمعاونة ابنته الصغيرة. إنّه حتّى يتذكّر اسمها؛ "فيفيان"، أجل إنّه فيفيان. وهل لهذه البنت أو اسمها علاقة بما يحدث له؟ أم هو الدبّ والحجر المطحون مع الأعشاب؟ أم تراه فعلاً قد فقد عقله وصار يتوهّم أشياء لا وجود لها؟

كان ألبان متأكداً من أنّ مخالب الدبّ خطّت على وجهه أربعة خطوط ومثلها على ذراعه. لكنّه الآن يراها ثلاثاً على وجهه وأربعاً على ذراعه! نظر جيّداً إلى انعكاس صورته على الماء، إنّها فعلاً ثلاثة. ووجهه هو وجهه، وثيابه هي نفسها التي خرج بها قبل يوم من منزله.

ثمّ هل صحيح ما حكاه العجوز هوغس أم أنّها مؤامرة كبيرة يشترك فيها عدد كبير من الناس بهدف سلبه داره وزوجه؟ أيعقل أن يحدث كلّ هذا في يوم وليلة؟

وكلوتيلد، يا للمسكينة! هل صحيح أنّها تألّمت ومرضت وماتت حزناً وكمداً؟ ثمّ كم هم أشرار هؤلاء القوم، لم يروا منه سوءاً طيلة عمره، حتّى إذا ما اختفى اتهموه بخيانة زوجته والهروب مع أخرى! آه من الناس وأخلاقهم وألسنتهم الحادّة الظالمة.

تعكّرت صورته في الماء بفعل رياح باردة بدأت تهبّ على المكان، وبدأت غيوم داكنة تملأ أرجاء السماء. قال لنفسه: "لن أعود إلى هذه القرية المشؤومة، إن كانوا يكيدون لي فلا طاقة لي بهم،

وإن كان حقّاً ما يقولون فمن الأجدر بي أن أطوف الأرض بحثاً عن أجوبة شافية أو أهلك كما هلكت حبيبتي كلوتيلد".

نهض وأخذ يمشي هائماً على وجهه محاولاً نسيان تساؤلاته لكن دون جدوى. ولم يدر كم مضى من الوقت قبل أن يرى نفسه وقد حلّ الظلام واشتدّ في أزقّة قرية صغيرة، تنبعث من نوافذ بيوتها أضواء المواقد الدافئة والضحكات الحميمة بينما كان هو يعاني البرد والجوع والإرهاق.

"يبدو أنّ المصاعب كلّها تجتمع ضدي" قال لنفسه، ثمّ ضحك وقال "إلّا النعاس، فإنني قد نمت طويلاً، طويلاً جدّاً على ما يبدو".

سرّه أنّه وجد شيئاً يضحك منه وهو محاط بكلّ هذه الهموم. همّ بأن يطرق أبواب الناس سائلاً إيّاهم الطعام والمأوى ولكن صدّه عن ذلك تجربته مع أهل قريته وندوبه الظاهرة في وجهه والتي قد تخيف الصغار وتثير ريبة الكبار.

وفجأة تحوّل رذاذ المطر إلى سيل منهمر ينصبّ فوق رأسه صبّاً فما كان منه إلّا أن رمى بنفسه أمام مدخل حظيرة صغيرة خالها للوهلة

الأولى مهجورة ولكن سرعان ما تبيّن له عكس ذلك وإن كانت تبدو مهملة بشدّة، فلقد أخاف دخوله المفاجئ وارتماؤه على رزمة تبن بعض إوزّات كانت ترقد هناك فانتفضت وصّوتت معترضة على إزعاجه إيّاها، ثمّ ما لبثت أن عادت تكمل نومها وساد صوت المطر ليل القرية النائمة.

قال لنفسه: "أرجو ألّا يشعر بي أهل هذه الدار، فليس ينقصني المزيد من المتاعب والطرد في منتصف الليل". لكن أمنيته هذه لم يكن لها حظّ على أرض الواقع، إذ لم يلبث الباب أن ينفتح تاركاً المجال لشعاع من الضوء الأصفر المتموّج ليخرج فيضيء عتبة البيت.

حاول ألبان ألّا يتحرك، كتم أنفاسه وزمّ نفسه قليلاً، وتمنّى لو أنّه يغلق عينيه فيختفي من الوجود، أو يفتحهما ليستيقظ من حلم مزعج طويل. لكن هيهات، فإنّ كابوسه هذه المرّة حقيقيّ مغرق في الغرابة لدرجة أنّه لو قصّه على الأولاد الصغار لاستغربوه ورفضوا تصديقه وهم الذين ينسجون الحكايات ويتوهّمون الخيالات. مرّت ثوان حسبها ساعة كاملة، ثمّ أخذ الباب ينغلق ببطء، فتنفّس الصعداء قائلاً لنفسه: نجوت!

لكنّ فرحته لم تطل، إذ عاد الباب لينفتح مجدّداً ولتخرج منه عصاً يتّكئ عليها شبح شخص ملتفّ بالثياب وبملحفة تكاد تخفي تقاطيع جسمه. ثمّ ظهرت يده ممسكة بقنديل صغير مدّته أمامها، ثمّ أخذ هذا الشبح يتحرّك ببطء باتجاه الحظيرة حيث يقبع ألبان.

تردد المسكين لوهلة، فكّر في الوقوف والجري، كما واستعدّ في الوقت نفسه للمواجهة إن هاجمه صاحب البيت، وأخذ يقلّب الأفكار ويضرب أخماساً بأسداس، ولكنّ شيئاً مما توقعه لم يحدث، بل كان ما حصل على العكس تماماً من كلّ ما جرى بباله...

توقّفت العصا على بعد خطوتين منه، وارتفعت اليد الممسكة بالقنديل لتلقي الضوء على قدميه ووجهه... لقد انكشف أمره، وحان وقت المواجهة، وانكشف أيضاً وجه حامل القنديل.

كانت عجوزاً كبيرة في السن، تنبئ تجاعيد وجهها أنّها ربما تخطّت الثمانين أو التسعين من العمر، لكنّه وجه يحمل بالرغم من أثر الزمان عليه قدراً كبيراً من الصفاء، العنصر الذي لم يره ألبان في وجوه الناس طيلة نهاره الحافل بالأحداث.

- من أنت أيّها الغريب، وما الذي جاء بك إلى هنا؟

قالت العجوز بصوت دافئ. صوت هدّأ من روعه فكأنّما ألبسه ثوباً من السكينة والطمأنينة، فرفع رأسه قليلاً بخجل وأجاب:

- أنا عابر سبيل يا سيّدتي، ضللت طريقي ودهمني الليل ولفحني البرد ثمّ قسا عليّ المطر فألجأني إلى هذه الحظيرة أتّقي بها الماء وأطلب فيها قليلاً من الدفء.

- ستمرض إن أنت بقيت هنا لا محالة يا بنيّ.

- لا تقلقي بشأني أيّتها السيّدة الطيّبة. كلّ ما أرجوه هو أن تتكرّمي عليّ وتسمحي لي بالمبيت هنا الليلة وأعدك أن أغادر في الصباح الباكر. ولو شئت نظفت لك الحظيرة كلّها ورتّبتها مقابل ذلك.

- لا.. ولكن تستطيع الدخول والمبيت قرب الموقد، فليل هذه القرية شديد البرودة.

- أشكرك من صميم قلبي أيّتها المرأة الطيّبة، لكن أخشى أن أزعجك، ثم...

- ثمّ ماذا؟

- لا أملك شيئاً من النقود لأعطيك مقابل مبيتي في الدفء.

- لا تحمل همّ النقود، هيّا اتبعني ولا تكثر الجدال فإن البرد بدأ يتغلغل إلى جسدي الهزيل.

نهض ألبان وتبع العجوز وهو لا يصدّق ما سمعت أذناه. أجل، لا يزال في هذه الدنيا أناس طيبون، لا يترددون في فعل الخير ومساعدة المحتاجين، لا يزال في هذه الحياة أناس ككلوتيلد... "ماذا حلّ بك يا عزيزتي كلوتيلد؟".

دخل بهدوء فأغلقت الباب خلفه وأوصدته، ثمّ أشارت إلى بساط أمام الموقد قائلة: "هذا أفضل من قضاء الليل في الخارج، تستطيع أن تنام على هذا البساط وسأحضر لك ما تدّثر به". وقبل أن يشكرها كانت قد تركته وولجت غرفة أخرى عبر باب مظلم، وغرق هو في أفكاره وخيالاته.

كان البساط بنّي اللون، جافاً ودافئاً وإن كان صغيراً بعض الشيء. "لا بدّ أنّه جلد دبّ"، قال لنفسه، "ولكنّه في هذه الحالة دبّ متوسّط الحجم". وهنا تذكّر الدبّ الذي تعارك معه بالأمس، أمسه هو لا أمس الآخرين، إذ يبدو أنّ الزمان يسير بسرعتين مختلفتين منذ

التقى ذلك الدبّ. وعادت التساؤلات تثرثر في ذهنه؛ هل هي الجروح التي سببها الوحش له؟ أم الأعشاب التي عالجوا جراحاته بها؟ أم أنّه جنّ حقاً وأصبح يتخيّل أشياء غير حقيقيّة؟ أم أنّ روح شخص آخر حلّت به فحملت ذكرياته؟ لا ، لا... مستحيل. الفأس المهترئة، عظام الحيوان، لا بد أنها كانت عظام حماره. الندوب التي على وجهه، بيته الذي عرفه وقصّته التي حكاها له ذلك الرجل... لا يمكن أن يكون ذلك كلّه خيالاً ولا يمكن أن يكون مجنوناً، لا يمك...

قطع عليه حبل أفكاره صوت المرأة العجوز وهي تدخل الغرفة وتحمل بيدها المرتجفة قصعة خشبيّة يتصاعد بخارها وتفوح منها رائحة الأعشاب القويّة، وتخيّل ألبان للحظة كيف يمكن لهذه الآنية أن تقع ولهذا الحساء أن ينتشر ويتبعثر، ولكنّ المرأة وصلت إليه أخيراً، دون أن يحدث شيء من هذا، مادة يدها قائلة له:

- تفضّل يا ولدي، لا بدّ أنّك تشعر بالتعب والجوع الشديدين. هذا الحساء سيساعدك على استرداد الدفء وإسكات الجوع. وهاك أيضاً دثاراً وثياباً جافّة، إنّها قديمة بعض الشيء لكن أؤكّد لك أنّها نظيفة.

- شكراً لك يا سيّدتي، لا أعرف كيف أشكرك، ولا أريد أن أكون ضيفاً ثقيل الظل.

- لا تقلق يا ولدي، فأنا أعيش هنا بمفردي منذ زمن بعيد، ولا يكاد يزورني أحد، ويسرّني أن أمدّ يد العون لمن يحتاجها.

- لا بدّ أنّك امرأة نبيلة يا سيّدتي من بيت طيّب.

- إنّما أنا ابنة رجل بسيط، فقدت أمّي عندما كنت في الخامسة من عمري فاهتمّ بي والدي وغمرني بعطفه وحنانه، وكنت أرافقه في تجواله وأعاونه في أعماله، وكان خيّراً عطوفاً وأورثني بعضاً من صفاته.

- هذا أغلى من المال والجاه.

- هو كذلك. من الجيد سماع ذلك من شابّ مثلك، فالناس عادة في مثل عمرك يهتمون بالكسب والربح أكثر من اهتمامهم بالمبادئ والقيم.

- لا تخلو الأرض من هذا وذاك.

قال ذلك ثمّ أردف وهو يرتشف شيئاً من الحساء الساخن:

- إنّه لذيذ فعلاً، لا أذكر أنّي تذوّقت مثله طيلة حياتي.

ونظر إليها، لكنّها كانت ولّته ظهرها وسارت بخطى سريعة بالنسبة لمن كان في سنّها، وخيّل إليه أنّا تخبّئ وجهها عمداً وتصرفه عنه. وبعد لحظات قالت:

- يجب أن أخلد للنوم، تستطيع أن تضع الإناء على الطاولة عندما تنتهي من شرب الحساء... ليلة طيّبة أيّها الغريب.

لم يدر ألبان ماذا يقول، ولكنّه كان شبه متأكّد من كونه لمح غصّة مكتومة في صوتها. هل صدر منه ما يريب؟ أم أنّه ذكّرها شخصاً عزيزاً عليها؟ ربّما كان هذا هو السبب، فهي امرأة كبيرة في السن وحيدة في هذا المنزل، لا بدّ أنّها تفتقد زوجها وأهلها وابناءها.

كان مفعول الحساء الساخن الذي ازدرده قبل ساعة بدأ يظهر عليه، فجسمه صار أكثر دفئاً وزال تشنّج عضلاته وارتخت مفاصله وصار يشعر بدبيب الحرارة يسري من أخمص قدميه إلى بقيّة جسمه. تمدّد متأمّلاً اللهب المتصاعد من الموقد. يعرف أنّه لن يتمكن من النوم، ولكنّه يحاول قدر المستطاع أن يبحر بخياله بعيداً، بعيداً جداً ما أمكنه ذلك، وأخذ يجيل نظره في الغرفة من حوله، وفجأة...

تسمّر في مكانه، فقد خيّل إليه أنّ عينين تنظران إليه في الظلام. تظاهر بالنوم، أرهف السمع، تقلّب يميناً ويساراً مثل النائم اللامبالي بما يدور حوله، لكن هاجسه هذا لم يتبدّد. نظر من طرف عينه؛ العجوز خرجت من ذلك الباب، والعين التي لمحتها في الجهة المقابلة. هل هو باب آخر، أم لصّ تسلّل ولم أشعر به، ولكنّي لا أسمع سوى صوت النار وهي تأكل الحطب في جوف الليل. حتّى المطر في الخارج كان قد هدأ ولم يبق إلا صفير الرياح وعواء الذئاب.

لم يستطع الصبر كثيراً، فتناول بيمناه قطعة خشب يشتعل طرفها وحملها واقفاً متجهاً ببطء إلى حيث خيّل إليه أنّ فيه من يرمقه، وتناول بيسراه وهو يخطو ببطء وحذر الإناء الخشبي الفارغ من على الطاولة وأحكم عليه قبضته. سار خطوات، ولم يكد يقترب من الجدار حتّى رأى ما جعله يتجمّد في مكانه وأوشك أن يقع أرضاً كمن شلّته مصيبة أو نزلت على رأسه صاعقة من السماء!

...

لا يمكن، مستحيل!

كان رأساً معلّقاً على الجدار، معالجاً بعناية ليصمد أمام عوامل الزمن. وكانت عيناه تنظران إليه مباشرة وكأنّها تتحداه، أو تكلّمه. تسمّر ألبان في مكانه لحظات، قرّر بعدها أن يميل بجسمه يميناً، ففعل. لم تتبعه العينان. مال مجدداً لكن إلى اليسار هذه المرّة، فلم تتبعه العينان. تنفّس الصعداء! لقد تخيّل لوهلة أنّ هذا الرأس المعلّق على الجدار سيتحرك ليكلّمه، بل ربّما ليبتلعه. لكن أكثر ما أخافه أنّه كان يعرف هذا الوجه... أجل! إنّه متأكد بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّه هو، إنّه الدب الذي تصارع معه وجرحه. هو لم يلتق الكثير من الدببة في حياته، ولكنّ نظرات التحدي التي امتلأ بها قبل يوم كانت لا تزال مطبوعة في ذاكرته، إنّهما العينان نفسهما والوجه عينه. "ولكنّي لم أقتلك يا صاحبي، لست أنا من فعل ذلك".

مرّت ساعات الليل بطيئة، حتّى استيقظ الفجر وصحت الديكة والطيور وترددت أصواتها في أرجاء الوادي. وما هي إلّا ساعة حتّى بدأت الشمس تبسط أشعّتها على سفح الجبل والتلال المحيطة.

كان ألبان قد حفظ الغرفة وما فيها، من الموقد إلى الصندوق، فالطاولة والنوافذ، ثمّ رأس صاحبه المعلّق على الجدار وفراؤه الملقى على الأرض، وقناديل وأدوات وأشياء عديدة يبدو عليها أنّها لم تستعمل منذ زمن بعيد، وهذا يؤكّد أنّ العجوز تعيش بمفردها. وحفظ كذلك أبعاد الغرفة طولاً وعرضاً لكثرة ما ذرعها جيئة وذهاباً. وكان فيها بابان بخلاف ذلك المؤدي إلى الخارج؛ أحدهما يقود إلى المطبخ، والآخر لا بد وأنّه يقود إلى غرفة العجوز أو إلى غرف أخرى لم يدخلها تجنّباً للحرج وابتعاداً عن المشاكل.

تنحنحت العجوز عند الباب، قالت:

- صباح الخير أيّها الغريب.
- صباح الخير يا سيّدتي.
- أخشى أنّك لم تنم جيّداً الليلة!
- لا، لا... في الحقيقة لقد نمت كثيراً مؤخّراً وكنت مشغول البال فلم يراودني النوم. أنا آسف حقّاً أن أقلقت ليلتك يا سيدتي.
- لا داعي للأسف، العجائز مثلي لا ينمن كثيراً، إنّه التقدم في السنّ يا ولدي.

لاحظ ألبان أنّها تنظر إليه باستغراب! تحاول أن تصرف نظرها عنه ثمّ لا يلبث أن يعود إليه على نفس الهيئة كأنّه يحمل علامات استفهام كثيرة. هل تشكّ به يا ترى، هل تظنّه سارقاً أو محتالاً، أو هارباً من العدالة ربّما... وقبل أن يحاول تغيير الموضوع قالت له:

- سأخرج لحظة لأحضر شيئاً من البيض، فلا بد لنا من أن نأكل.

وابتسمت وشقّت طريقها إلى الخارج وهي لا تزال تخفي النظرات نفسها.

ظنّ ألبان أنّها ربّما خرجت تطلب المساعدة لإلقاء القبض عليه، أو أنّها ستنادي الجيران لتستعين بهم إن دعا الأمر؛ وعندها كل الحقّ في أن ترتاب به فهو لم يتوقف عن التحرّك في الغرفة وإصدار الأصوات طوال الليل، فلا غرو أن شكّت به العجوز وحسبته طالب سوء.

لكن خواطره هذه لم تدم طويلاً، فسرعان ما عادت المرأة وفي أحد جيوبها بيض يغري بالتهامه ولو من دون نار، وخاصّة لرجل يشعر بالجوع الشديد كحاله. وما هي إلّا دقائق معدودة حتّى كانت المائدة جاهزة وبدأ الاثنان تناول الطعام بصمت. ولكنّ النظرات كانت لا

تزال بادية رغم محاولات المرأة إخفاءها. هنا نظر ألبان إلى رأس الدب المعلّق على الجدار وقال محاولاً بدء أيّ حديث يبدّد هذه النظرات المرتابة:

- رأس جميل.
- نعم!
- الدب.. جميل.
- آه، أجل.
- هل كان زوجك صيّاداً؟
- لا، لا... إنّه لوالدي.
- كان والدك صيّاداً إذن!
- لا، كان راعياً، وقد وجد يوماً هذا الدبّ ميتاً فنزع رأسه وجلده وصنع بهما ما ترى.
- هذا يتطلّب قدراً كبيراً من الشجاعة على كل حال.
- أجل، إنّه...

وتلعثمت العجوز في كلامها وازداد ارتباكها. أغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً ثم نظرت إلى الطاولة أمامها وقالت تخاطبه دو أن تنظر في عينيه:

- لا تؤاخذني يا بنيّ، يبدو أنّ الكبر نال منّي حتّى بدأت تختلط في ذهني الأشياء والصور والذكريات.
- لا عليك يا سيّدتي، أرجو ألّا يكون ذلك بسببي!
- لا، لا. ليس بسببك، إنّه في الحقيقة... إنّه وجهك.
- أنا آسف، كان يجب أن أغطي هذه الندوب ولكنّي نسيت نفسي، سامحيني أرجوك.

وأراد النهوض ليبحث عن شيء يغطي وجهه به، فقد ظنّها خائفة من منظر وجهه. قالت:

- لا داعي لذلك يا بني، ليس هذا ما قصدته. ثمّ إنّ كثيراً ممّن يعيشون في القرى والغابات يحملون ندوباً على أجسادهم تدلّ على خروجهم من معركة ما على قيد الحياة، ليس هذا بشيء. ولكنّك تشبهه كثيراً.

- أشبه من يا خالة!

- تشبه ذلك الرجل الذي قتل الدب.

- من؟!

- كنت صغيرة أخرج مع أبي إلى المراعي، لقد حاول أن يعوّضني فقد أمّي فكان يأخذني معه حيث يذهب إذ لم يشأ إيداعي عند أحد ولا أن أخدم في بيت آخر مادام قادراً على التكسّب والعمل. وفي يوم من الأيّام هاجمنا دبّ في غابة قريبة من هنا، وكنّا وحيدين في المكان بعيدين عن أقرب القرى إلينا مسير ساعة أو ساعتين، ولكنّي أخذت أصرخ بأعلى صوتي طالبة النجدة، وأبي يحاول حجز الدب بعصاه، لكن ماذا تفعل العصا أمام دبّ جائع؟

ولم يمض الكثير من الوقت حتّى أقبل حطّاب سمع استغاثتي، وكان على مقربة منا ولا نراه، فأقبل مسرعاً ودخل مع الدبّ في صراع عنيف فكان يعاجله مرّة بفأسه ومرّة بعصا غليظة التقطها بيسراه حتّى أتعب الدبّ وأرهقه وأثخن فيه فولّى هارباً، فجلسنا نشكر الرجل ونضمّد جراحه. الغريب في الأمر أنّك تشبهه كثيراً،

ورغم أنّي أصبحت طاعنة في السنّ فإنّ نظري لا يزال قويّاً وذاكرة صباي أقوى، حتّى الجراحات التي في وجهك، كأنّها هي! غير أنّ الحطاب كان عنده أربع خطوط خلّفتها مخالب الدبّ على وجهه، ولو أنّه لم يقفز متراجعاً في الوقت المناسب لكان فقد وجهه وروحه.

- وماذا حدث بعدها؟
- شكرنا الرجل ومضى، ولم يكن بمقدورنا أن نشكره بأكثر من الكلام، غير أنّ أبي بحث عنه بعدها طويلاً ليقدّم له هديّة جزاء جميله معنا ولكن دون جدوى، فلقد طاف جميع القرى المحيطة بنا فلم يعثر له على أثر، وكأنّ الأرض انشقت وابتلعته. وقد طالما أوصاني أبي، منذ ذلك الحين، بمدّ يد العون إلى المحتاجين لعلّنا بذلك نوّفي الرجل بعض حقّه.
- ومتى حدث هذا يا سيّدتي، هل تذكرين؟
- قبل عشرات السنين يا بنيّ، كنت حينها في الثانية عشر من عمري أو الثالثة عشر، ليس أكثر.

- لا بدّ أنّه سافر ما دمتم لم تجدوه في أيّ من القرى ومات قطعاً منذ زمن بعيد.

- لا أشكّ في هذا، ولكنّي عندما رأيتك أمس وكان الضوء خافتاً لم أتبيّن ملامح وجهك جيّداً. لكن هذا الصباح، وأشعة الشمس تضيء الغرفة وتفاصيل وجهك جيّدا تخيّلت أنّي أقف أمام ذلك الحطّاب بلحمه ودمه... لا تؤاخذني يا بنيّ، فلقد كبرت في السن وبدأت الأشياء تختلط عليّ كثيراً.

- لا تقلقي يا سيّدتي. على كلّ حال، أنا على سفر ولا بدّ لي من أن أكمل طريقي، فلن أزعجك أكثر ممّا فعلت.

ولم يكد ينهي كلامه حتّى نهض واتجه إلى البساط أمام الموقد يجمع متاعه القليل. فنهضت بدورها العجوز ورجته أن ينتظرها لحظات ثمّ اختفت ببطء خلف الباب، ولم تلبث أن جاءت ومعها شيء من الطعام والشراب وبعض النقود متمنّية عليه أن يأخذها معه، فهو أحوج إليها منها وليست تعول أحداً وما عندها يكفيها ويزيد.

قبِل ألبان أعطيات المرأة العجوز التي لم تكن غير الصغيرة فيفيان التي عالجت جراحه قبل يومين، بل قل قبل سبعين سنة، وقبّل

يديها المرتجفتين وخرج يذرع طريقه والأفكار تتصارع في رأسه. وكأنّ الأجوبة التي يحصل عليها في كلّ مرّة تولّد لديه مزيداً من الأسئلة. ومضى وصوت دعواتها له بالتوفيق يتردّد في أذنه، وصورة كلوتيلد ترتسم في مخيّلته كأنّها شاخصة أمام عينيه.

وسار ألبان ليالي وأيّاماً دون نوم، يعبر القرى والسفوح، خلف الشمس، ليس يدري إلى أين تقوده خطواته، بينما الشيء الوحيد الذي كان واثقاً منه هو أنّه لا سبيل للرجوع. وفي طريقه المتعرّج، عقد العزم على أن يصنع لكلوتيلد تمثالاً خشبيّاً يحفظ صورتها ويخلّد ذكراها ويرافقه معه في سفره. ولكن، وقبل أن يحقّق هذه الغاية، حدث ما لم يكن في الحسبان.

(6)

المطاردة

أحكم توماس وضع قبّعته وأحنى مقدّمتها فوق عينيه لكي يخفي ملامح وجهه. خرج بسرعة من الصيدليّة بعد أن غادرها الرجل ذو الندبة وحثّ السير خلفه قبل أن يضيع أثره. وبالرغم من حرصه على إدراكه إلّا أنّه تعمّد أن يبقي بينه وبين هدفه مسافة آمنة أو شخصين على أقلّ تقدير لكي لا يتنبّه إليه فتفشل مساعيه.

كانت الصيدليّة تقع في الجهة الشمالية من شارع بريكسون غير بعيد عن حديقة كنينغتون الشهيرة، أي إلى الجنوب قليلاً من وسط العاصمة العريقة. وكان شارعاً عريضاً عادة ما يعجّ بالحركة والنشاط ويجوبه بائعو الصحف والعمال والمتسوّقون كما الدراجات والسيارات والحافلات ذات الطابقين والترام الكهربائيّ. ولكنّ الحرب العظمى كانت تلقي بظلالها الثقيلة على المكان، فالحركة أقلّ بكثير من المعتاد، ومن لم تكن عنده حاجة ضرورية تدفعه للخروج فإنّه

إمّا لازم بيته أو مساعد الآخرين في إعداد الملاجئ، عدا الذين نزحوا إلى الريف والأماكن النائية عند أقربائهم لمن توفّر له ذلك، فلا أحد يدري كيف ستسير مجريات الأمور وتتطور، ولا إن كان الألمان سيعاودون غاراتهم الجويّة أم لا.

كان الخريف يقترب ببطء، وأطلّ شهر أيلول (سبتمبر) برأسه ودرجة الحرارة لا تتخطّى العشرين درجة مئوية في مثل هذه الأيام إلّا نادراً، لكنّ الأحداث المتسارعة كانت تزيد الحرارة في جوانب أخرى كثيرة.

لاحظ توماس، وبالرغم من كونه يمشي خلف الرجل الغريب، أنّ هذا الأخير كان يحاول إخفاء وجهه ما استطاع، يحني مقدمة قبعته، يرفع ياقة معطفه ويكاد يغوص فيه. كان يمشي بخطى ثابتة لكن غايته لم تكن واضحة حتّى الآن. كان عندما غادر الصيدليّة قد اتجه إلى اليمين قليلاً، ثمّ ما لبث أن عبر الشارع إلى الجهة المقابلة، ثمّ أخذ طريقاً صغيراً يفضي إلى شارع فوكسلي، وهناك انعطف يساراً وما هي إلّا خطوات حتّى وصل طريق كامبرويل الجديدة وهو أحد الشوارع الرئيسية في المنطقة ثمّ انعطف إلى اليسار مجدّداً.

خشي توماس أن يضيع غريمه في هذه الانتقالات السريعة فحثّ الخطى خلفه واقترب منه أكثر فأكثر. لا بدّ أنّه شكّ في أنّ شخصاً ما يلاحقه، وإلّا فما الداعي لكلّ هذا اللفّ والدوران إن كان باستطاعته الوصول إلى نفس المكان عبر السير بشكل مستقيم؟!

لم يكد توماس يفرغ من تساؤله حتّى رأى صاحبه يرمي بنفسه أمام حافلة كبيرة تعبر الشارع. حاول اللحاق به ولكن الحافلة كانت قد حالت بينهما.

"هذا الوغد، لا بدّ أنّه فطن لي، لقد عرّض نفسه وعرّضني معه للهلاك... لكن لا، لن أستسلم" قال توماس لنفسه، ثم أسرع يعبر الطريق هو الآخر دون أن يعبأ كثيراً بالسيّارات المسرعة التي فاجأها في طريقها وأثار حنق سائقيها. وتنفّس الصعداء، فقد لمح صاحبه وهو يدخل شارعاً جانبيّاً متفرّعاً من إحدى مخارج الشارع الرئيسيّ، فأسرع يدخله هو الآخر، وبعد مطاردة استمرّت قرابة العشرين دقيقة وجد صاحبه يبطئ المسير، وكان قد بلغ الطرف الشماليّ من حديقة كنينغتون، هناك رأى الرجل يضع يده في جيبه ثمّ يمدها بشيء إلى

أحد المتسوّلين والمشرّدين الذين ازداد عددهم في هذه الناحية من الحديقة. ثمّ راح يفعل الشيء نفسه مع ثان وثالث ورابع.

"حيلة جيّدة، إنّهم ربّما عملاء مثله ويبلّغهم الإرشادات وهو يوحي للناظرين بأنّه يتصدّق عليهم. أو أنّه يحاول تضليلي؟ لا بدّ لي من كشف حقيقة هذا المحتال".

تمهّل توماس هو الآخر، ثمّ اقترب من الجالسين على قارعة الطريق بثيابهم الرثّة وحالهم المزرية وهو يحاول أن يرى ما في أيديهم دون أن يغفل عن صاحبه، فكان لحظة يتبعه بصره ولحظة ينظر إليهم عساه يرى ورقة في أيديهم أو أيّ شيء يمكن الكتابة عليه لكن دون جدوى.

خشي بعد قليل أن يفقد أثر الرجل، فتناسى أمر الآخرين وأسرع في طلب غايته، ولم تحل عيناه عنه حتّى وجده يختفي في بناء مكوّن من طابقين عند طريق والوورث في قلب حيّ نيوإنغتن، ولشدّ دهشته كان يوجد أسفل هذا البناء... صيدليّة!

"هذا فعلاً أمر محيّر، لماذا يمشي نصف ساعة ليشتري أدويته من عندنا إن كانت واحدة أخرى تقع مباشرة تحت مسكنه؟!".

أخذ توماس يذرع الشارع جيئة وذهاباً حتّى سنحت الفرصة ووجد سيّدة كبيرة في السنّ تخرج من باب المبنى الذي دخله الرجل، فأسرع وولجه من قبل أن يغلق خلف العجوز. كان الممر مظلماً تفاصيله لا تكاد ترى ولكنّه سرعان ما اعتادت عيناه على الظلام فغدت الصورة أوضح في عينيه خاصّة عند السلالم التي تعلوها نافذة دائريّة تكدّس عليها الغبار كأنّها لم تمسح منذ سنوات.

كان بناء قديماً بعض الشيء، وكانت بعض النباتات الذابلة متروكة على جوانب الممر. سار ببطء وأخذ يصعد الدرجات محاولاً ألّا يصدر ضجّة ولا يلفت انتباهاً، ولكنّ صرير بعضها كان أقوى من أن يُكتم، وبالرغم من أنّه كان خافتاً وساكنو البناء معتادون عليه دون شك، إلّا أنّ توماس كان يتخيّله أشبه بخوار البقر!

وصل الطابق الأول، أرهف السمع جيّداً... لا شيء.

استلم الدرجات مجدّداً باتجاه الطابق الثاني... أطلق أذنيه عبر الصمت الذي يلفّ المكان علّها تلتقط شيئاً يفيده، ولكن لا حسّ على الإطلاق؛ "أين يا تراه اختفى هذا الرجل، وخلف أيّ الأبواب يختبئ؟".

أحسّ توماس بالإحباط فهو لم يصل إلى نتيجة واضحة طوال الساعة التي قضاها في مطاردة هذا الغريب. اللهم إلّا عنوانه، وهذا ليس سيّئاً بذاته ولكن لا يكفي لإقناع المفتش لإلقاء القبض عليه، لا بدّ من شيء واضح، من دليل ملموس... واجتاز عتبة البناء المظلم إلى ضوء الشارع.

خطا خطوتين ففوجئ بصوت لم يكن يتوقّعه:

- توماس؟
- جون!
- أراك في حيّنا اليوم! هل انتقلت للسكن هنا؟ ولماذا تخفي وجهك هكذا؟
- أنا! لا.. لا.. لا شيء، إنّني فقط... في الحقيقة...

- تكلّم، ما لك تتلعثم كالطفل الصغير؟ تخاف أن يسمعك أحد في الشارع الخالي!
- لا، لا.. على الإطلاق. إنّني فقط، إنّني أتيت أوصل دواء لأحد زبائننا في هذا المبنى.
- لا بدّ أنّه يعرفكم أو يعرف جورج منذ زمن بعيد، وإلّا لكان اشترى دواءه من عندنا ولوفّر عليك كلّ هذا العناء.
- لا، لا.. بلى، بلى.. أجل.
- لا بدّ أنّك متعب يا صديقي، أو أنّها الحرب وأهوالها التي أنستك كيف تتكلّم.
- صدقت، إنّه التعب. إنّني لم أنم جيّداً منذ وقت بعيد بسبب هذه الحرب الطاحنة. فأحياناً يقصدنا جنود جرحى عائدون من الجبهات، وشبان يريدون التطوّع والالتحاق بالجيش. وفي المساء أمضي الساعات الطويلة أصغي إلى تطوّرات المعارك في المذياع، فلا يزيدني هذا إلّا قلقاً وهمّاً وتعباً. ولا أخفيك القول، إني أخشى ألّا نتمكّن من لجم طموح هتلر وكبح تقدّمه.

إنّه يتقدّم كالصاعقة في أرجاء أوروبا وربما ابتلعنا غداً كما ابتلع فرنسا قبل شهرين وكما ابتلع من قبلها دولاً أخرى عديدة.

- دعك من هذا فإنّ عندنا جيشاً قويّاً متمرّساً في الحرب لا يضاهى، فلا داعي للمبالغة بالقلق. ثمّ إنّ بيننا وبينه البحر، وهو لنا حصن وله عقبة كبيرة فلا تقلق. ولكن قل لي، من هو زبونكم هذا، هل أعرفه؟
- إنّه رجل غريب عن لندن، عنده ندبة في خدّه الأيمن.
- أظنّني رأيته مرّ من أمام الصيدليّة مرّة أو اثنتين، ولكنّي واثق من أنّه لم يدخلها قط. هل تعرفونه منذ زمن بعيد؟
- لا، إنّما رأيته للمرة الأولى قبل أسبوع تقريباً. وكم أتمنّى لو أدري لماذا يقطع كلّ هذه المسافة ليبتاع منّا وأنتم على بعد خطوتين من باب بيته.
- هذا سؤال لا أملك إجابته.
- لا بأس. على كلّ حال، لقد تأخّرت عن عملي كثيراً، سأعود قبل أن يغضب جورج ويخصم من راتبي الذي لم يعد يكفي أصلاً، وربّما نلتقي مجدّداً الأيام القادمة يا جون.

- هو كذلك، إلى اللقاء.

ثمّ أضاف ممازحاً صاحبه:

"أنصحك بأن تسرع الخطى وأن ترفع قبعتك قليلاً لتستبين الطريق".

(7)

في صحبة الرسّام

فتح ألبان عينيه ونظر إلى السماء الزرقاء... إنّها صافية لا تكاد تشوبها إلّا بعض الغيوم البيضاء المتناثرة. ولاحظ أيضاً أنّ الجوّ دافئ وأنّ الهواء مشبع بروائح العطور الزكيّة.

"هل حلّ الربيع قبل الشتاء أم أنّني لا زلت أحلم؟!".

اعتدل في جلسته فوجد نفسه محاطاً بأزهار متفتّحة وخضرة وعصافير... إنّه الربيع حقّاً! لكن، ما الذي يجري؟ هل نمت مجدّداً سنين طوال؟

حاول أن يعصر ذهنه ويستردّ ذاكرته؛ كان على مشارف الشتاء والسماء ملبّدة بالغيوم، وكان التعب والإعياء قد بلغا منه مبلغاً فاختار صخرة كبيرة تقيه عصف الرياح وشجرة وارفة تدفع عنه شدّة المطر وبينهما نصب خيمته واستلقى تحتها ليرتاح.

لم تكن خيمة بالمعنى الحرفي، وإنّما هي أفرع أشجار ثبّتها حوله وفوقها مدّ رداء خفيفاً وأحكم ربطه ونام.

نظر خلفه فإذا الصخرة التي اختارها، ولكن أين الشجرة؟ لم تكن هناك شجرة تظلّه، ليس إلّا ذلك الجذع الساقط عن يساره، لا بدّ أنّها هي! والخيمة، لا أثر لها، إلّا بقايا قماش تالف متعلّق بفتات أخشاب تحيط به. يبدو أنّ الزمان عاد يصنع به كما المرّة الأولى... "كم من الوقت مرّ يا ترى وأنا على هذه الحال؟".

استلم جرابه من عن يمينه، كان فيه سكينه المسنون والمغلّف بإحكام، ومسنّ حجريّ وإزميل وصرّة نقود. ولكن لماذا الإزميل؟

وكان بجانبه قماش يلتفّ حول شيء يخفيه في داخله. مدّ يده وأخذ يزيح القماش فإذا بقطعة كبيرة من خشب الزان وقد تلفت جزئياً فأخذ ينظر إليها وهو في أشدّ الحيرة: لماذا أحتفظ بها؟

فجأة، أخرجه من ذهوله صوت يخاطبه:

- ماذا تراه يقول السيد لهذا الأثر؟!

كان شاباً بهيّ الطلعة باسم الوجه حسن الثياب، يبدو عليه أنّه في بدايات أو أواسط العقد الثالث من العمر. أجابه ألبان بعد أن حوّل نظره عنه إلى قطعة الخشب:

- أحاول أن أتذكّر سبب احتفاظي بها.
- من الواضح أنّها لا تصلح لأكثر من إشعال النار!
- أجل ولكن.. في الحقيقة لا أذكر جيّداً. معي إزميل وقطعة خشب ملفوفة بقماش، أظنني كنت أريد أن أحفر فيها شيئاً مهمّاً لكن لا أستطيع تبيّنه!
- هذه يا أيها المحترم لا تصمد أمام الزمن إن كنت تقصد تخليد شيء للذكرى، أمّا التسلية فهذا شأنك.
- تخليد شيء للذكرى... ربّما تكون محقّاً. أظنّني كنت أريد أن أفعل شيئاً لأجل كلوتيلد، زوجتي الراحلة، ولكنّي سوّفت وأجّلت حتّى نسيت ما كنت أريد فعله ابتداء.
- في هذه الحال يلزمك شيء أدوم كالبلوط مثلاً، وهو متوفّر بكثرة في هذه الأرجاء.
- لا داعي لذلك الآن. ولكن هل أنت نحّات أيّها النبيل؟

- شكراً لإطرائك، ولكنّي لست واحداً من النبلاء، إنّما أنا رسّام أخالطهم وأعمل لهم، وعندي إلمام بالنحت وفنونه وإن كنت لا أمارسه، وكما تعلم فإنّه لا بدّ لمن كان مثلي أن يحيط علماً بهذه الحرف والصناعات.

- فهمت، إذن أنت شخص مهمّ على كل حال.

- تستطيع أن تقول ذلك. بالمناسبة، أقدّم أسفي لأجل زوجتك والذكرى التي فاتتك.

- لا داعي للأسف، كان هذا منذ زمن بعيد.

- إنّك لوفيّ إذن، فلا تزال في ريعان الشباب وعنفوان الرجولة. أحبّ هذا وأجده شاعريّاً، لماذا لا تكتب شعراً لذكراها، لا بدّ أنّك ستبدع فيه.

ارتسمت على وجه ألبان ابتسامة بريئة ممزوجة بالحزن:

- للأسف لست شاعراً ولا أعرف الكتابة.

- حقاً! هذا فعلاً أمر مؤسف. بإمكاني تعليمك القراءة والكتابة إن أردت.

- ولكن هل ستمكث هنا أيّها الرسام؟

- تستطيع أن تناديني "جوليان"، "جوليان بوناميني". وبالطبع لن أمكث هنا، فإنّي عائد إلى بلدي، البندقية. ولكن إن قبلت مرافقتي علّمتك القراءة والكتابة، ولا تقلق، فلن آخذ منك شيئاً من النقود فإنّ عندي منها ما يكفيني.

- هذا عرض سخي جداً منك سيّد بوناميني، وربّما أقبله، إذ ليس لي غاية واضحة أمضي إليها. ولكن قلت أنّك عائد إلى البندقية، فمن أيّ البلاد قدمت.

- كنت أقيم عند أحد نبلاء شامبري، في مملكة سافوي، أرافقه في جولاته وأعمل رسّاماً له ولعائلته. ولكنّ الأوضاع في المملكة وفي فرنسا متأزّمة في الآونة الأخيرة، فآل سافوي وإن كانوا استعادوا مدينة شامبري من الفرنسيين إلّا أنّها لم تعد عاصمة لهم، والتوتر بين البروتستانت والكاثوليك على أشدّه. وبما أنّني إيطالي فأنا بنظرهم كاثوليكي ولو لم أنطق بكلمة في الدين وعليه فقد أصبحت شخصاً غير مرغوب فيه هناك. وقد فكّرت في الانتقال إلى أيّ مدينة فرنسيّة كبيرة لأعمل فيها، لكن الحروب والثورات لا تكاد تهدأ، حتّى إنّ أخبار القتل والإعدامات والاغتيالات تتردّد

كثيراً، فقرّرت في النهاية العودة إلى البندقيّة حيث ولدت وترعرعت، أو إلى أيّ مدينة أخرى أجد فيها السلام والطمأنينة.

- ومن هؤلاء البروتستانت وما قصتهم؟
- أيعقل أنّك لم تسمع بهم من قبل؟ ولا بمارتن لوثر أو الإصلاح الديني؟
- لا لم أسمع، ولو كنت فعلت لما سألتك.
- يبدو أنّك حقّاً منقطع عن العالم من حولك. مارتن لوثر هو راهب من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كانت له ملاحظات وانتقادات كثيرة للفساد المستشري في الكنيسة، وله كذلك مخالفة في فهم بعض النصوص الدينيّة وتفسيرها. وبعد مخاض عسير أطلق حملة واسعة النطاق ونشر رسائل يدعو فيها إلى الإصلاح وقوبلت هذه الحركة من الكنيسة بالرفض الشديد. ومن هنا نشأت طوائف جديدة في بلاد الامبراطورية الرومانية وما جاورها، ووقعت بسبب هذا الخلاف أعمال عنف كثيرة. أمّا مارتن لوثر فقد مات قبل خمس عشرة عام أو يزيد.

ماذا عنك، أكاثوليكيّ أم لوثريّ؟

- هل يتوجّب عليّ أن أكون أحد هذين الاثنين؟ ألا يحقّ لي أن أكون شيئاً ثالثاً مثلاً، أو أن أحتفظ برأيي لنفسي؟!

- لا تقلق يا صاحبي، لن أشي بك إلى الجنود أو الرهبان، خاصّة إن كنت ستصبح معاوناً لي. لكنّ المشكلة أنّ كثيراً من الناس، وخاصّة زمن الفتن، تقلّ قدرتهم _ أو حتّى رغبتهم _ على التفكير والتمييز بحياديّة وعدل. فترى الاستقطاب على أشدّه واتهامات الشيطنة أو شهادات الملائكيّة توزّع بحسب الهوى، مما لا يترك مجالاً لمن كان مثلي ومثلك، ويدفعون الناس دفعاً لاختيار أحد المعسكرين، وتنبعث دوّامة من التشرذم لا يعرف أحد متى تهدأ. ها، ماذا قلت، هل سترافقني في سفري يا... أظنّك لم تخبرني باسمك!

- ألبان، اسمي ألبان. حسناً، لا مانع عندي من مرافقتك إذ أنّي أتجوّل منذ مدّة دونما غاية محدّدة، ولكن يجب أن أجد أوّلاً طعاماً آكله ومكاناً أغتسل فيه.

- لقد دلّني بعضهم على بلدة غير بعيدة من هنا، أظننا نستطيع أن ندخلها قبل انتصاف النهار. أمّا الماء فإن لم تجده في البلدة فالأنهار هنا كثيرة فتدبّر أمرك.

ومضى الرجلان في طريقهما، ولكنّه لم يكن يخلو من المتاعب.

بعد مسير استمرّ قرابة العشرة أيام، وصل ألبان وجوليان إلى البندقيّة أخيراً ولمّا ينتصف النهار بعد، وكان هذا الأخير يتشوّق لرؤية والديه وأقرانه. فلقد غادر المدينة قبل عقدين من الزمن ولم ير أهله منذ ذلك الحين، وإن كان يراسلهم كتابة كلّما سنحت له الفرصة وصادف من يقصد البندقية للتجارة أو السفر أو غير ذلك، فهي مدينة عريقة كانت ولا تزال تلعب دوراً كبيراً في السياسة والتجارة والفنّ وإن كانت مكانتها كمركز للتجارة البحريّة بدأ يتراجع مع استكشاف العالم الجديد والاتجاه إلى المحيط الأطلنطي.

نزلا من الزورق في وسط الجزيرة القديمة، وتجولا قليلاً وهما يشاهدان المدينة وعمرانها وشوارعها وقنواتها المائيّة الشهيرة، وكان ألبان مأخوذاً بما يراه، فهذه هي المرة الأولى في حياته التي يشاهد

فيها زوارق وسفناً وممرات مائيّة، ناهيك عن التجوال في واحدة من أشهر العواصم الأوروبيّة وإن لم تكن من أكبرها.

عبرا جسر ريالتو الذي يربط ضفّتي القناة الرئيسيّة باتجاه الشرق، وتقدّما جنوباً حتّى منتصف الطريق بين الجسر وبين ميدان القديس مارك. وقف جوليان أمام بيت لا يكاد يتميّز بشيء عن البيوت المحيطة به، لكن في نظره كان هذا البيت يختزل الكثير؛ إنّها النشأة والطفولة والذكريات والحنين. تقدم وطرق الباب، وتراجع قليلاً مفسحاً المجال للمفاجأة التي يعدّها لوالديه.

بعد قليل فتح الباب، وظهر من خلاله رجل مكتنز يتدلى بطنه من أمامه وتفوح منه الروائح الكريهة!

- ماذا تريدان؟

أجاب جوليان بعد لحظات صمت وقد عقدت لسانه المفاجأة:

- نبحث عن السيّد بوناميني.
- لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم.
- ولكن هذا بيته يا سيّد.

- قلت لكما لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم، وأنصحكما بالانصراف لكي لا تتسبّبا لأنفسكما بمتاعب أنتم في غنى عنها.
- أنا واثق من أنّ هذا بيت السيد بوناميني وأنا ابنه الأكبر، جوليان.
- السيد بوناميني لم يعد موجوداً هنا، وإن كان عندك اعتراض فاذهب واشتك إلى رجال الشرطة!

حاول جوليان الاعتراض لكنّ ألبان هدّأ من روعه ونصحه بالتريّث والتفكير، فلقد تذكّر بيته في الجبال وكيف وجد فيه أناساً لا يعرفهم اشتروه بشكل "قانونيّ".

- لم لا تسأل الجيران _ قال ألبان _ فلا بدّ أنّك تذكرهم ويذكرونك، أو بعضهم على الأقل. أو ابحث عن أقاربك وتحدّث إليهم.

تحامل جوليان على نفسه برغم الضيق الذي خيّم على قلبه والسواد الذي غطّى مشاعره والزلزال الذي شوّش تفكيره واتّجه إلى أقرب الأبواب جهة اليمين فطرقه ثمّ انتظر. لكنّ أحداً لم يردّ. قصد بعدها الباب الثالث فأجابته خادمة شابّة بأنّ سيّدتها خرجت ولن تعود قبل المساء.

استدار جوليان وسار مطرقاً عبر الشوارع في صمت وخلفه كان ألبان ينظر إليه بحزن وأسى، فلا هو يملك مساعدته في محنته ولا يجرؤ على تسليته بالحديث فالوضع لا يحتمل.

بعد مدّة توقف جوليان أمام منزل إلى جواره فناء صغير به بضع دجاجات وأولاد يلعبون وقد اتسخت وجوههم وأيديهم واختلطت ثيابهم بالتراب، لكن أصواتهم لم تكن تعلو كثيراً. طرق الباب وانتظر قليلاً، وهو يخشى أن يعود من أمامه خائباً صفر اليدين كما كان الحال مع الأبواب الأخرى.

بعد لحظات مرّت ببطء فتحت امرأة الباب ونظرت إليهما باستغراب. قال جوليان:

- مرحباً يا سيّدتي، إنّي أبحث عن السيد سيزار، سيزار بوناميني.
- للأسف، سيزار مات منذ سنتين بعد معاناة شديدة مع المرض.
- شيء مؤسف حقّاً. إسمحي لي أن أسأل لمن آل البيت بعد السيد سيزار؟
- إنّه الآن ملك ابنه فابيو.

- حسناً، وهل أستطيع أن ألقى فابيو الآن، أو أين أستطيع أن أجده؟

- لقد خرج فابيو إلى البحر هذا الصباح ولن يعود قبل غروب الشمس.

تنهّد ألبان وارتاح في قرارة نفسه. سيجدون أخيراً من يتعرّف على صاحبه ويحلّ له الألغاز التي أحاطت به.

سكتت المرأة هنيهة ولاحظت أنّ أحداً من الرجلين لم ينطق بكلمة فقالت:

- وجهك يا سيدي يبدو مألوفاً، ولكنّي لا أذكر أنّي رأيتك من قبل.
- اسمي جوليان، جوليان بوناميني، وأنا ابن عمّ فابيو. غادرت البندقيّة في سنّ الخامسة عشر وعدت اليوم فلم أجد أحداً من أهلي في بيتنا و...

قاطعته المرأة قائلة:

- آه يا إلهي، أنا آسفة حقّاً!

استغرب الرجلان لردّة فعلها. لا بدّ أنّ هناك شيئاً ما حدث يستحقّ الأسى والأسف والاعتذار. ولكنّهما حاولا التحلي بالصبر وتصنّع رباطة الجأش أمامها.

ثمّ عادت لتقول:

- لا بدّ أنّكما متعبان، سأجهّز لكما مكاناً ترتاحان فيه وطعاماً تأكلانه ريثما يحلّ المساء ويعود فابيو من الصيد.

وهكذا كان، ولكنّ أحداً من الرجلين لم ينم بالرغم من أنّهما لم يتحدّثا كثيراً. وكانت المرأة تطلّ عليهما من حين لآخر تسأل إن كان يلزمهما شيء لتصنعه لهما فيشكرانها بأدب.

كان فابيو يصغر جوليان بسنة واحدة فقط، وكان ترتيبه الثاني بين أبناء عمه الستة والذي كان رزق بأربعة ذكور وبنتين. وفهما من الأحاديث القليلة التي دارت بينهم وبين زوجة فابيو أنّ البنتين لا تزالان تعيشان في المدينة، بينما كان الأخ الأكبر لفابيو واسمه ماريو قد لقي حتفه غرقاً إثر عاصفة هوجاء هبّت وكان حينها على ظهر مركب متوسط الحجم ولم ينج من هذه العاصفة إلا ثلاثة أشخاص.

أمّا الأخوان الأصغران فلقد كان أحدهما، لويجي، سكّيراً لا يعبأ بشيء في هذه الحياة غير زجاجة الخمر، ولا يزال على قيد الحياة ويعيش على أطراف المدينة. وكان لوكا، أصغر الذكور الأربعة، سافر قبل سنوات إلى إسبانيا ليلتحق بركب الطامحين في اكتشاف العالم الجديد واغتنام ذهبه وكنوزه. وكان أبوهم سيزار مريضاً، ولكنّ موت ابنه البكر وسفر الأصغر وانحراف الأوسط تجمّعت كلّها عليه حتّى أوهته، فاستسلم للموت حزيناً كئيباً مكلوماً.

من جهته، كان لويجي قد حاول الحصول على البيت أو جزء من الميراث، ولكنّ فابيو كان حازماً في ردّه، وأثبت أنّ أباه كان حرمه من الميراث في وصيّته. وفيما يخصّ فابيو فقد تزوّج في العشرين من العمر، أي بعد سفر جوليان بست سنوات، وضمّ إلى أبنائه ابن شقيقه ماريو الوحيد ليكون تحت رعايته.

مرّت ساعات النهار بطيئة جدّاً، وخصوصاً على جوليان الذي كان يتلهّف لرؤية ابن عمّه. ليس للقرابة والصداقة التي تجمع بينهما فحسب ولكن ليفهم منه ما سرّ ما جرى لبيته ولوالديه. وحلّ الظلام أخيراً على البندقية، وهبّت النسمات الباردة المنعشة تداعب عروس

البحر، وهدأت الأصوات في الخارج وسكنت الحركة فكأنّها نامت فلا صوت إلّا لزورق هنا أو وقع أقدام بطيئة هناك. ودقّ الباب، وانخلع قلب المسكين اللهفان وهو يترقّب دخول صاحب البيت.

كان فابيو طويل القامة مستقيم الظهر عريض المنكبين، وكانت يداه غليظتان كأنّه خلق ليكون صيّاداً أو بحّاراً، وقفز الأولاد يتعلّقون به ويستقبلونه استقبالاً حارّاً. هتف أحدهم:

- أبي، أبي... عمّي هنا، عمّي هنا.

شحب وجه فابيو واكفهرّ. "عمّي هنا"! ترى ما الذي جاء به؟ وهل يجرؤ على النظر في عينيه؟ أم أنّه لا يفكّر إلا بالاقتراض وطلب الاستدانة؟

ودنت منه زوجته مرحّبة به قائلة له:

- عندك ضيوف ينتظرونك بفارغ الصبر.

دخل فابيو الغرفة حيث ألبان وصاحبه مغضباً، ولكنّه سرعان ما تبدّدت علامات الغضب عن وجهه وصاح قائلاً:

- جوليان؟!

- بشحمه ولحمه.
- يا مرحباً بك، متى عدت.
- وصلت صباح اليوم، ولم أجد مكاناً ألجأ إليه إلّا هنا. وقد استقبلتنا زوجتك أفضل استقبال. أقدّم لك ألبان، صاحبي في السفر وربّما مساعدي المستقبليّ في الرسم.
- مرحباً بكما. أنا جدّ آسف لما حصل لوالديك وبيتكم.
- وأنا جدّ متلهّف لأفهم ما الذي حصل، ولماذا الجميع آسف؟ وأين والداي؟

فهم فابيو من أسئلة ابن عمّه أنّ أحداً لم يخبره بالحقيقة بعد. قال:

- لقد ماتت أمّك قبل خمس سنوات، ثمّ مرض أبوك ووهن ولحق بها بعد سنتين. أمّا أخوك فكان قد سافر وشقيقي الأصغر لوكا إلى إسبانيا وانقطعت أخبارهما هناك. ولم يصلنا عنك خبر منذ وفاة والدتك، وكانت تذكرك كثيراً وتبكي فراقك وبعدك.
- أرجو أنّهما الآن يرقدان بسلام. ولكن قل لي، من هو الرجل البغيض الذي يقطن بيتنا، ومن باعه البيت إن لم أكن لا أنا ولا أخي ماركو موجودين؟

- لم يبعه منا أحد.
- ما الذي تعنيه؟ كيف استحوذ عليه إذن؟ وأين كنتم أنتم لتمنعوه؟
- إنّها قصّة معقّدة...
- وأنا أستمع!
- إنّه الضابط سيرجيو. كان هو المسؤول عن حفظ الأمن في هذه الجهة من المدينة، ولكنّه إنسان فاسد ونذل بكلّ ما للكلمة من معنى. دبّر في الخفاء ليستولي على البيت فأخذ إقراراً من الحقير لويجي بأن لا ورثة أحياء لأبيك وأعطاه مقابله مبلغاً من المال. فوضع يده عليه ومن ثمّ باعه للرجل الذي رأيته. ولم يجرؤ أحد منّا على مواجهته فقد كان باستطاعته أن يلفّق التهمة التي يريد لمن يحبّ إيذاءه.
- شيء مؤسف حقّاً. وأين أجد سيرجيو هذا؟
- لن تجده هنا.
- ماذا تعني؟

- كثرت شكاوى الناس من فساده وطغيانه وضجّت المدينة فاضطر الدوق بريولي إلى إرساله بعيداً، إلى فيرونا، فهو هناك منذ سنة تقريباً أو أكثر.

- هكذا إذن.

نظر جوليان إلى ألبان قائلاً:

- هيّا بنا يا صاحبي.

فسأل فابيو مستغرباً:

- إلى أين؟!

- إلى فيرونا طبعاً. لنجد حلّاً مع هذا الفاسد المدعو سيرجيو.

- ليس بهذه السرعة. ثمّ إنّ الظلام خيّم ولا قمر الليلة. أمكثوا هنا حتّى الصباح، وغداً تتزوّدون وتنطلقون إلى حيث شئتم، وإن كنت أظنّ أنّ الكلام لا يجدي مع هذا الإنسان.

- حسناً، ولكن أقسم بأنّي لن أتركه يهدأ وينعم بما فعل. أمّا أنت يا فابيو، فأشكرك على حسن استضافتك لنا وكرمك. ولا بدّ أن أعود إلى هنا حالما أصفّي حسابي في فيرونا.

ونام الجميع في تلك الليلة، إلّا واحداً، على انتظار الصباح وما يحمله لهم من جديد.



(8)

مغامرة في فيرونا

لم يكن ألبان يعرف، حين وصلا مشارف فيرونا، أنّه على موعد مع مغامرة جديدة ستغيّر حياته تغييراً جذريّاً، وستترك في نفسه أثراً لا يمحى، تماماً كأثر الدبّ، غير أنّ أثر الدبّ في الجسد وأثر مغامرته هذه في النفس.

استغرق طريقهما ثلاثة أيّام بلياليها، ولم تصادفهما متاعب تذكر. والآن، حان وقت الجدّ والمواجهة، والتي لم يكن أيّ منهما يعرف كيف ستنتهي. قضيا الليلة في نزل في أحد الأحياء شرقيّ فيرونا ثمّ توجّها ضحوة اليوم التالي إلى مبتغاهما وسط المدينة.

لمح ألبان من بعيد المدرّج الروماني الضخم، ورغب بزيارته والتجوّل فيه وفي أزقّة المدينة القديمة حوله. ولكنّه عاد إلى رشده وتذكّر صديقه الذي هو بأمسّ الحاجة إليه الآن ليستردّ حقّه المسلوب... أو شيئاً منه.

وقفا أمام دار الشرطة وطلب جوليان من صاحبه أن ينتظره غير بعيد عن الباب، وألّا يغادر قبل أن يعود إليه مجدّداً. أومأ ألبان برأسه موافقاً ثمّ انتحى جانباً وجلس يراقب الشارع وأبنيته والمارّة وأرديتهم وسعيهم ويلتقط بعض الكلمات يمنة ويسرة فيحاول أن يبني عليها معنى واضحاً أو قصّة متخيّلة. وطال الوقت ولم يخرج جوليان، وبدأ ألبان يحسّ بالجوع، فتحامل وصبر، ولكنّ جوعه ازداد حتّى لم يعد يحتمل. قرّر أخيراً أن يمضي في الشارع قدماً بحثاً عن شيء يسكت به سغبه محاولاً قدر المستطاع ألّا يبتعد، وأن يديم النظر إلى مدخل البناء حيث جوليان، فكاد أن يصطدم بالمارّة عدّة مرّات وسمع من بعضهم ما لا يسرّه، ولكن لا بأس، فلو أنّهم عرفوا السبب لعذروه. ولم يطل به الوقت حتّى اشترى شيئاً من الطعام وعاد إلى الزاوية التي كان يجلس فيها وهو يفكّر في سبب تأخّر صاحبه، وفي نظرات الرجل الذي ابتاع منه غداءه الغريبة تلك عندما ناوله النقود، فقد خشي لوهلة أنّ الرجل سيرد عليه نقوده ويستدعي الشرطة لأجله إذ اعترض عليها كونها قديمة ولم يعد أحد يتعامل بها هذه الأيّام، غير أنّ الرجل رضي في نهاية المطاف وقضي الأمر. لكن شكوك ألبان لم تلبث أن

عادت تساوره عندما رأى البائع يتحدّث مع أحد رجال الشرطة وخيّل إليه في الوقت نفسه أنّه يشير إليه.

"لا بدّ أن أنصرف من هنا فقد أطلت المكوث وربّما أثرت الريبة. ولكن أين أنت يا جوليان؟" قال ألبان لنفسه.

بعد ساعة من الزمن لاحظ ألبان تبدّل نوبات الحراسة عند الباب، وبعدها بقليل خرج أحد الجنود خالعاً خوذته مسترخياً في سيره على غير عادة الحرس، فقدّر أنّه خرج لغاية غير عمله أو أنّه في استراحة الآن. فتقدّم إليه بهدوء وألقى التحيّة بأدب ثمّ قال:

- من فضلك يا سيّدي، هل تسمح لي أن أسأل إن كان أحد من المدنيّين لا يزال في الداخل؟
- ماذا تقصد بسؤالك؟
- دخل صاحبي في الصباح ليقابل القائد سيرجيو ولم أره يخرج إلى الآن، وها قد انقضى النهار ولست أدري إن كان خرج دون أره أم أنّ مكروهاً أصابه.
- وما أوصاف صاحبك هذا؟

- إنّه طويل القامة نحيل الجسم، أملس الشعر يرتدي ملابس ملوّنة مميّزة...
- تقصد الرجل البندقيّ!
- هو بعينه، هل تعرف أين هو يا سيّدي؟
- إن كان حقّاً صاحبك فإنّي أنصحك بمغادرة هذا المكان والابتعاد قبل أن يصبك ما أصابه.
- قبل أن يصيبني ما أصابه! ماذا يقصد سيدي المحترم؟
- صاحبك هذا تشاجر مع القائد سيرجيو فقرر حبسه، وأخشى إن هو علم أنّ له أصحاباً ينتظرونه في الخارج أن يضمّهم إليه في حبسه.
- شيء غريب حقّاً! لكن شكراً لك يا سيدي على كلّ حال.

استدار الجنديّ ومضى في طريقه، وكذلك فعل ألبان مطأطئاً رأسه.

"يبدو أنّ المسألة أعقد ممّا كنّا نتصوّر".

كان يفكّر في وسيلة ينقذ بها صاحبه من براثن ذلك الخبيث، وهو يدرك أنّ البساطة والبراءة لا تصلحان لمواجهة الأشرار من أمثال سيرجيو. لا بدّ إذن من حيلة وتدبير محكمين... لكن كيف؟

اتجه ألبان إلى النزل حيث كانا قد تركا حاجيّاتهما، وجمع أغراضه وأغراض جوليان وخرج. كان لا بدّ له أوّلاً من أن يمحي آثار سكناه لكي لا يمكّن العسس من القبض عليه، فإن كان يريد أن يخلّص صاحبه فلا بدّ من أن يكون طليقاً بداية وأن يتحرّك في الخفاء. وهنا قرّر ألبان أن يفعل أكثر شيء يجيد فعله... ألا وهو عدم النوم!

مرّت أربعة أيّام لم يظهر فيها أثر لألبان في فيرونا، لكنّه كان هناك، طوال الوقت. وفي اليوم الخامس، ضحى، والناس ما بين غاد إلى عمله ورائح، انتبه من في الساحة العامّة وسط المدينة إلى بلبلة وضجيج ملفتين. كان رجال سيرجيو يقودون أفراد عائلة بعنف إلى الساحة الرئيسية أمام المدرّج الروماني، وتجمّع خلق كثير ليفهموا ما قصّة هذه العائلة ويروا ما الذي سيحلّ بهم.

وقف سيرجيو على مصطبّة خشبيّة وسط الساحة، تنحنح مرّة ثمّ أخرى، وأخذ يتكلّم، وجسده يسبق كلماته حاكياً غروره وغطرسته. قال:

- أيّها الناس، اعلموا أنّ فيكم مفسدين يدّعون الطهر والعفاف، والشرف والاستقامة، ولكنّهم في الحقيقة أخسّ الخلق وأدناهم، وأخفى الأعداء وأخطرهم. انظروا إلى هؤلاء، من لا يعرف حقيقتهم يظنّهم أبرياء، مساكين، ولكن لا... لا يغرنّكم شيب الرجل ولا أمومة المرأة، فهؤلاء جميعاً جنود للشيطان.

وتوقّف قليلاً بزهوه ليستمع إلى ردّة فعل الناس وهمساتهم وليرى أثر كلامه على وجوههم، فليس أحبّ إليه من أن يرى كيف يتحكّم بالعشرات كأنّهم ألعوبة في يديه. ثمّ مضى يقول:

- بلى، إنّهم يشكّلون خطراً على أنفسهم، وخطراً على أولادكم وخطراً على مدينتنا الحبيبة فيرونا. إنّ هؤلاء مهرطقون كفرة، يخالفون تعاليم الربّ ويشتمون كنيستنا ويحطّون من قدرها. ماذا يبقى لنا إن نحن سكتنا عن هؤلاء وضلالاتهم، اليوم يرموننا بسهام ألسنتهم وغداً بنصال سهامهم ورماحهم. أيظنّون أنّا لا علم لنا بالرسائل التي يوزّعونها والأفكار التي يزرعونها! إنّ هؤلاء لا مكان لهم بيننا، وأقلّ ما يستحقّونه هو الموت!

ومضى أحد أعوان الشرير سيرجيو يهتف ويقول: "الموت، الموت، لا شيء إلا الموت" ثمّ ما لبث أن اقتدى به عدد من الواقفين، وإن كان أغلب من حضر يشاهد ما يجري بصمت أو همس خفيّ. وارتفع صوت بكاء الأطفال الثلاثة الذين كان رجال الشرطة يمسكون بهم قرب والديهم، أمّا الأبوان فقد كان أثر الإعياء بادياً عليهما بوضوح فلم ينطقا بشيء.

ولكنّ صوتاً قطع على سيرجو فرحته وبدّد نشوته، فقد تقدّم من بين الحشود رجل قويّ البنيان يخفي رأسه بقلنسوة حمراء ويزيده رداءه هيبة. قال:

- أيّها الناس، لا يخدعنّكم هذا المحتال الأشر. كيف تسكتون على الظلم وترضون به؟ إنّكم متى سكتم عن الظلم مرّة ستسكتون عنه مرّات ومرّات. ومتى رضيتم به لغيركم فسيحلّ بكم لا محالة. كيف تقبلون اتّهامات رجل فاسد كقائد حرسكم هذا؟ أين الدليل على ما يقوله؟ ولماذا لا يترك الفرصة لهذه العائلة لكي تدافع عن نفسها ما دام واثقاً ممّا يقول؟

ضجّ الناس وهاجوا وماجوا، وهبّ سيرجيو يأمر رجاله بالقبض على هذا الغريب، ولكنّ أصواتاً كثيرة ارتفعت تطالبه بأن يترك الرجل ينهي كلامه، فأكمل هذا الأخير قائلاً:

- إنّ المسؤول عن حمايتكم في الحقيقة سارق! يحرّضكم على بعض العائلات الضعيفة وغايته المضمرة الاستيلاء على دورهم ومصادرة أملاكهم، ولا يهمّه كونهم مع الكنيسة أو ضدّها، فما أسهل تلفيق التهم عنده واستعمال الدين مطيّة لأهدافه.

صرخ سيرجيو:

- هراء، أوقفوا هذا المحتال الكذّاب.

لكنّ الرجل أكمل غير مبال بقائد الشرطة وجنوده وفجّر مفاجأة مدوّية جعلت الصمت يخيّم على الساحة للحظات:

- إنّي أمامكم جميعاً أتحدّى هذا المدعوّ سيرجيو أن يخرج الورقة التي يخفيها بين طيّات ملابسه ليطّلع عليها الملأ.

صمت الجميع، ثمّ صرخ سيرجيو وقد فقد أعصابه:

- عن أيّ ورقة تتحدث! قلت لكم أوقفوه، أيها الحرّاس...

وهمّ بعض الجنود بالتحرّك، لكنّ زملاءهم أوقفوهم، وتقدّم أحد كبار الضباط من زميله الذي علت الصدمة وجهه قائلاً:

- من بعد إذنك.

وأسقط في يدي الأخير، ومدّ الضابط الآخر يديه يفتّشه فوجد ورقة ملفوفة يبدو عليها من هيئتها أنّها جديدة. فضّها ثم أخذ يقرأ بصوت منخفض بداية ما لبث أن ارتفع شيئاً فشيئاً... وشهق الحاضرون القريبون من الرجال الثلاثة، وتهامس من في الخلف. قال الضابط:

- إنّه صكّ تنازل ربّ العائلة المقيّد ههنا عن الدار والأملاك إلى السيّد سيرجيو إيجينيولي بكامل الإرادة والرغبة والوعي. وهو لا يحمل توقيع الرجل بعد! أظنّ أنّ هذا الأمر يحتاج توضيحاً حضرة الضابط.

- هذه حيلة، مؤامرة، مكيدة مدبّرة للتخلّص منّي. أنا لا علاقة لي بهذه الورقة ولا أدري من دسّها في ثيابي، صدّقوني. أنا لم أفعل شيئاً يخالف القانون.

لم يكن بين الحاضرين جميعاً من يصدّق هذا الدعيّ، وتوجّه الضابط

إلى الجنود الذين يحرسون العائلة البروتستانتية فأمرهم بإطلاق سراحهم واعتذر إليهم نيابة عن شرطة المدينة. ثم تقدّم منه الرجل ذو القلنسوة ورفعها فلم يكن إلّا ألبان متنكّراً بزيّ من أزياء جوليان، فسلّمه أوراقاً أخرى قائلاً بصوت يسمعه السامعون:

- وهذه يا سيّدي ثلاثة صكوك كتبها القائد سيرجيو في الأشهر الأخيرة بخطّ يده وأكره أصحاب العلاقة على التوقيع عليها إن أرادوا الحفاظ على أرواحهم والسماح لهم بمغادرة المدينة أحياء، ولكم أيضاً أن تفتّشوا خزانته لتجدوا فيها المزيد. وهناك أيضاً رجل بريء محتجز في دار الشرطة، لا لجرم اقترفه غير أنّه طالب السيّد الموكل بحفظ الأمن بردّ مظلمته واستعادة بيته الذي غصبه في البندقيّة فكان جزاؤه السجن.

لم يتردّد الضابط كثيراً فأمر أحد الجنود باصطحاب ألبان إلى السجن وإطلاق سراح صاحبه فوراً بعد تدوين شهادته. ثمّ دعا الناس إلى الانصراف، وتوجّه إلى سيرجيو قائلاً:

- أمّا أنت حضرة القائد، فإنّ لنا حديثاً آخر ولكن ليس مكانه هنا.

لم يصدّق جوليان عينيه. ألبان بثيابه هو رفقة أحد الحرّاس يخرجانه من زنزانته، يطرح عليه الحارس بعض الأسئلة حول ما جرى بينه وبين سيرجيو وسبب حبسه، ويدوّن أجوبته ثمّ يطلق سراحه وهو يعامله بقمّة الأدب والاحترام. وما إن خرجا من السجن حتّى التفت إلى صاحبه قائلاً:

- لا أفهم شيئاً ممّا يجري! هات أخبرني ماذا حدث.
- وجدتك تأخرّت كثيراً يوم انتظرتك هنا، حتّى سألت أحد الجنود عنك فأخبرني أنّك أغضبت المدعوّ سيرجيو فأمر بحبسك. حينها قررت الاختفاء ومراقبته سرّاً حتّى أجد لك مخرجاً مضموناً، فاكتشفت أنّه يكتب صكوك البيع أو التنازل بنفسه ثمّ يكره بعض من يلقي القبض عليهم على توقيعها. ويختار لذلك من عنده أملاك تملأ عينه ويستطيع أن يلصق به تهمة خطيرة عقوبتها الموت، فلقد رأيته ليلاً يفاوض رجلاً كهلاً على ما ذكرت إن أراد أن يحافظ على حياته وحياة عائلته، وبالمقابل، يغادر المتّهم المدينة ويكتم خبره خشية انتقام المجرم منه. وكلّ ما فعلته هو أنّي حضرت حفلة اتهام سيرجيو للرجل وأهل بيته،

وتخفّيت بهذه الثياب لكي لا يتفطّن إليّ أحد ممن رآني أنتظرك أمام دار الشرطة، وكنت قبلها سألت عن رجل مستقيم من كبار الرتب العسكرية فدلوني على ضابط باسم إيبوليتو، فحكيت له جزءاً من القصّة ووعدته بتقديم الأدلّة القاطعة ورجوته حضور تمثيليّة سيرجيو السخيفة، فحضر، وأسقط في يدي المحتال وسخر منه الناس ولم يبق له في عيونهم قدر أو مهابة أو احترام. وكان ما كان وأرسل الضابط إيبوليتو معي من يخرجك من السجن، والآن يمكنك التمتّع بحريّتك كما تحبّ وتشتهي.

- لقد أبهرتني بحسن تصرّفك وأسديت إليّ معروفاً لن أنساه أبداً. كما أنقذت أبرياء من حبل المشنقة أو التشريد وأعطيت الناس درساً في الشجاعة وقول الحقّ والبحث عن الحقيقة. أنت فعلاً شخص رائع.
- إنّما أنا واحد من هؤلاء الناس، وما دفعني لفعل ما فعلته إلّا الضرورة.

وضحك الاثنان، وأمضيا بقيّة نهارهما في الاستعداد للعودة إلى البندقية، وافترقا لينهي كلّ أشغاله فذهب جوليان ليستحصل على

ورقة مختومة بأنّه تعرّض للظلم من قبل سيرجيو. أمّا ألبان فقد قصد العائلة المستضعفة ليلقي عليهم تحيّة الوداع ويشدّ من أزرهم قبل سفره.

ولكنّه لم يصل إليهم!

فلقد كان ينتظره عند مفترق أحد الطرق رجلان ممّن يعملون لصالح الفاسد سيرجيو، هجما عليه وكمّما فمه وقيّداه وحملاه بعيداً.

(9)

الهروب من الأسر

كانت ليلة قاسية جداً لم يعرف ألبان مثلها في حياته، حتّى أنّه تمنّى لو أنّه لم يكن قطّ ولد!

كانوا قد أغمضوا عينيه، وانهالوا عليه ضرباً وركلاً وقذفاً وشتماً، فلم يكن يدري أيّها أشدّ على نفسه من الأخرى. وبالطبع لم يتبيّن طريقه، ولكنّه متيقّن من أنّهم عبروا به النهر إلى الجهة الأخرى، فهو إذن الآن غربيّ المدينة، ولكن أين بالتحديد؟ لم يكن يملك أدنى فكرة.

خمّن أنهم ربّما سيحملونه إلى منزل سيرجيو، وإن كان لم ير بعد هذا الأخير أو يسمع صوته، ولكن من غيره سيتعرّض له؟ خاصّة بعد الفضيحة المدوّية والإهانة التي سبّبها له. ولكنّ منزل سيرجيو يقع وسط فيرونا وليس على الضفّة الأخرى، بالإضافة إلى أنّه مكان سهل الاشتباه به، أمّا هنا فالعمران قليل، ولن يعثر عليه أحد!

رفع أحد الجنود الغطاء عن رأسه بعد أن قيّده من يديه بسلاسل معلّقة في غرفة قذرة، وفي قدميه وضع الأصفاد المعدنيّة والتي كانت بدورها يعلوها الصدأ. ومن جنبات المكان تنبعث رائحة كريهة، هي مزيج من روائح العفن والبول والرطوبة و... الموت.

بعد جولة أخرى من الضرب بالعصيّ والسياط، توقف الرجلان اللذان تناوبا على ضربه كأنّهما يتمتّعان بالتهام خروف مشويّ أو ضرب جوال تبن، ولم يوقفهما غير التعب الذي حلّ بهما. أمّا هو فقد تصنّع النوم والغشية لعلّهما يتركانه وحاله وآلامه.

"ليتني ما ولدت قط، وما صارعت حيواناً قط... ليته كان صرعني، ليتني أموت فأستريح".

كان في حالة يرثى لها، ولكنّه لم يتمكّن من النوم وإن كان يتمنّاه. حاول بكلّ ما أتيح له من حيلة ووسيلة، ولكن دون جدوى. ومرّ الليل ببطء شديد كأنّه ليل الشتاء الطويل، وكان ألبان يرتجف؛ من الجوع والألم والنزف، ومن نفحات الهواء البارد على جسده شبه العاري. نسمات كان ليسرّ بها لو لم يكن في هذا الموقف، ولكنه يرى بأمّ

عينيه كيف تكون نعمة بعض الناس نقمة على غيرهم، والعكس صحيح.

طلع النهار أخيراً، وبدأت أشعّة الشمس تتسلّل من نافذتين صغيرتين في أحد الجدران؛ كان ضوءاً باعثاً على الأمل برغم وهنه. وعرف مما على أرضيّة الغرفة من آثار أنّها شهدت حديثاً حفلة تعذيب أخرى. ترى من الذي جرى تعذيبه هنا وبأيّ ذنب، وهل تراهم قتلوه؟ وهل سيلقى هو المصير نفسه؟

مرّ النهار ولم ير ألبان أحداً. كانت آلام كتفيه لا تطاق، وقد حاول قدر المستطاع ألّا يصرخ وألّا يظهر لمعذّبيه ضعفاً أو خوراً، ولكنّه لم ينجح بالتظاهر بالجلد كما أحبّ. ولم يكن ينقصه إلّا آلام الجوع الذي يزداد، والزنابير التي تحطّ على جسده الضعيف وجروحه النديّة بين الفينة والأخرى.

"يا رحمتا للمساجين والمعذّبين، أيطيقون العيش مع كلّ هذا البلاء!".

في المساء، تنبّه على أصوات ضوضاء تقترب، لم يتبيّن عدد القادمين وهيأتهم، ولكنّ تساؤلاته سرعان ما وجدت إجاباتها، فقد ظهر

سيرجيو وهو يرسم على وجهه ابتسامة صفراء كأنّها غمست بالحقد والتشفّي والاستعلاء والكراهية. قال:

- والآن، يبدو أنّك مسرور لانتصارك العظيم عليّ... كنت جدّ أحمق عندما تجرّأت على مواجهتي. ظننت أنّك ستنجو بنفسك أو أنّ ذاك الـ "إيببوليتو" سينقذك من براثني. صدّقني أنت مجنون وواهم، أنا سيرجيو الفظيع ولا أحد يقف في وجهي.

والآن، ربما تسائل نفسك ما أنا فاعل بك؟.. الجواب بسيط؛ سأقتلك بالطبع، لكنّي سأقتلك بهدوء حتّى تتمنّى الموت كلّ لحظة فلا تجده. أو، وهنا سأظهر لك أقصى درجات العفو والرحمة، أريحك وأقتلك للتو إن أنت دللتني على مكان الكنز.

- الكنز!.. أيّ كنز؟

- لا تتظاهر بالغباء، أنت تعرف جيّداً ما الذي أعنيه.

- لا أدري عن أيّ كنز تتحدّث.

- لا تستغبني يا هذا، وندوبك البشعة هذه سأضاعفها لك إن لم تتكلّم بسرعة.

الندوب! كان ألبان قد نسيها، أو كاد. وبرغم كلّ ما هو فيه فقد ألقى على ذراعه نظرة سريعة فوجدها قد نقصت واحدة، وتساءل كيف نسي أن يعدّها منذ استيقظ آخر مرّة. أمّا سيرجيو فلم يكن يبخل بالضرب والصفع بين الكلمة والأخرى، وعندما يملّ كان يلهو بخنجره الصغير على الجسد المعلّق أمامه كأنّما هو لوحة والنصل ريشة رسّام. ولمّا لم يبد ألبان تجاوباً أمر أحد رجاله بإحضار شيء ما، فأسرع هذا الأخير ليغيب خارج هذا المكان البائس ثمّ ما لبث أن عاد وفي يده صرّة نقود ألبان. هزّها سيرجيو بيده ثمّ فضّها أمام عيني صاحبها وأفرغها متحدّثاً:

- هذه النقود نقودك، أم أنّك ستتنكّر لها الآن؟ أم تظنّني غافلاً عمّا يجري في الأسواق!

هنا تذكّر ألبان الرجل الذي ابتاع منه طعاماً قبل أيّام وكيف رآه يخاطب الشرطي ويشير إليه، فقال في نفسه: "كم هو داهية هذا الطاغية الكبير، لا يترك شاردة ولا واردة إلّا حاول استغلالها ليروي طمعه وجشعه". ومضى الآخر يقول:

- وهي كما ترى قديمة لم تعد تستعمل منذ زمن بعيد، وقد كانت شائعة في شمال وشرق البلاد قبل نصف قرن، أمّا الآن فلم تعد متداولة. فلا بدّ إذن أنّك وجدتها في مكان ما. وأرجّح أنّه قبر تاجر أو ثريّ، فإنّ بعضها مصنوع من الفضة. وأنا واثق من أنّك تخفي الكثير لكي لا ينكشف أمرك ويشاركك في الغنيمة غيرك. وبما أنّ فيها قطعاً فضّيّة فلم لا يكون فيها أيضاً قطع ذهبيّة، أو أشياء أخرى ذات قيمة مرتفعة!

- يا هذا لا يوجد كنز ولا قبر...

- لا تقاطعني! وإيّاك أن تتكلّم قبل أن آذن لك. أين كنت... أجل. كنت أقول أنّك ستموت قريباً، وأنّك لن تستفيد من هذه النقود بشيء. فالأحرى بك إن أردت الخلاص من العذاب أن تدلّنا على المكان الذي تخفي فيه بقيّة الكنز. ومن يدري، ربّما أشفقت عليك وعفوت عنك فعدت إلى صاحبك الرسّام الذي يجوب الشوارع والأزقّة بحثاً عنك.

والتمعت ومضة أمل في ذهن ألبان لذكر جوليان، هل تراه سيتمكّن

من مساعدته؟ ولكنّ بصيص الأمل هذا سرعان ما ذوى في ظلّ العذاب المرّ الذي كان يكويه ببطء شديد.

أمّا سيرجيو فقد مضى تاركاً إيّاه ليفكّر في عرضه "السخيّ" على أن يعود مساء الغد. ومضت الساعات كما سابقاتها، وكان الشيء الوحيد الذي يتغيّر هو رغبة ألبان في النوم أو الموت والراحة، الرغبة التي كانت آخذة في الازدياد دون أن تخفّف عنه ما يجد.

بعد يومين من العذاب والسياط، والتهديد والوعيد، والضغط والإنكار، خطر لألبان أن يستغلّ جشع خصمه الشرّير لينجو. فأخذ يدبّر خطّته بإتقان وإحكام.

نادى الحارس وطلب منه إبلاغ سيرجيو أنّه سيتكلّم، ولكنّه لا يستطيع استحضار ذهنه بسبب التعب والجوع والعطش، فأمر سيرجيو بإنزاله بعد أن بقي معلّقاً ثلاثة أيام دون شفقة أو رحمة، وبإعطائه النزر اليسير من الطعام والشراب مع بقائه مقيّداً إلى الجدار. وهكذا كان، فبدأ ألبان يسترجع قواه شيئاً فشيئاً. وفي مساء

اليوم التالي دلّهم على مكان كان قدّ مرّ به أثناء قدومه صحبة جوليان، وكان هذا المكان على مسيرة ساعتين من فيرونا.

لم يضيّع الرجال وقتاً فذهبوا للبحث دون جدوى، فاعتذر ألبان متعلّلاً بضعف الذاكرة وشدّة التعب. وفي اليوم التالي فعل الأمر نفسه، ودلّهم على مكان قريب من الأوّل لكي لا يشكّو فيه، فآبوا دونما كنز أو غنيمة. وكاد صبر سيرجيو أن ينفد، فاقترح ألبان عليه أن يرسله معهم ليدلّهم على الطريق، وأنّه عندما يصل ويعاين المكان لا بدّ سيتذكّر موضع الكنز بالتحديد.

قبل الطمّاع العرض، فأرسل معه ثلاثة من الرجال وشدّد على إبقائه مقيّداً، راجلاً، وأن يطعموه ويسقوه لكي يتذكّر جيّداً من جهة ولكي لا يعيق مسيرهم من جهة أخرى. كما وأمرهم بالانطلاق ليلاً حتّى لا يلفتوا أنظار القلّة الذين يعيشون في هذه الجهة من المزارعين والرعاة.

انطلق الأربعة مع حلول الظلام، وتعمّد ألبان السير ببطء وأن يكثر التذمّر من أصفاده. وكان الطريق يرتفع صعوداً ويزداد وعورة كلّما

تقدّموا فيه، حتّى قرّروا أخيراً أن يحلّوا قيوده وأن يمشي بينهم مخافة أن يفرّ. واستمرّوا كذلك حتّى بلغوا مشارف هاوية يختفي عمقها في الظلام. وكانت على شفا منحدر صخريّ. فأشار ألبان أسفل قدميه إلى شجرة بلّوط صغيرة بارزة من بين الصخور قائلاً:

"هناك، في تجويف صغير خلف الشجرة".

كان الليل قد انتصف، والقمر في كبد السماء يساعد بالكاد من اعتادت عيناه على الظلام. أخذ أحدهم مشعله وراح ينزل الصخور وألبان يوجّهه. ثم صرخ به فجأة فوقف!

دنا الآخران ليعيا ما يجري، فقال ألبان: "كان قنفذ كبير خلف قدمك، فاحذر أن تمسّك أشواكه". فأخذ الرجل يتلفّت وألبان يشير إلى الظلام، والآخران يحاولان رؤية ما يشير إليه. وفي لمح البصر، كان يلقي بأحد الرجلين في الهاوية ويدفع الآخر وينطلق هارباً.

شلّت المفاجأة الواقف بين الصخور حين رأى صاحبه يهوي وسمع صوت ارتطامه المتكرّر فأيقن بهلاكه، وقد كاد يقع هو الآخر فتيبّست قدماه وثبت في مكانه متشبّثاً بجذع شجيرة نابتة بين

الصخور. أمّا الثالث فلم تكن دفعة ألبان له بالقويّة كفاية فنجا من الوقوع، ونهض يعدو خلف غريمه وهو يتخيّل ردّ فعل سيرجيو عندما يعلم بما جرى معهم، وكيف أنّه من الممكن له أن يعذّبهم أو حتّى أن يقطّعهم أحياء على هذا التقصير. وبعد دقائق من الجري في ضوء القمر، تمكّن من إدراك ألبان، ودخل معه في صراع عنيف.

كان الحارس أفضل حالاً وأقوى بدناً منه، ولكنّ غريزة النجاة عند ألبان أثناء هذه المطارد كانت دافعه الأقوى للإفلات والنجاة. وبعد عراك استمر مدّة بين الرجلين سقط ألبان أرضاً، وانقضّ الحارس عليه يلكمه بكلتا يديه كأنّه عدوّ قتل أباه وأمّه. كاد ألبان أن يفقد عينيه، بل وروحه أيضاً، لكنّه تمكّن من مدّ يده اليمنى ليتحسّس الأرض فتناول حجراً ثمّ هوى به على رأس الحارس القابع فوقه بكلّ ما أوتي من قوّة. بوغت الرجل ودارت عيناه في رأسه، عاجله ألبان بضربة ثانية ثمّ ثالثة تركته صريعاً على الأرض. ونهض يبتعد بسرعة وقد تورّم وجهه وسال الدم من أنفه، لكن لا يهم، المهمّ أنّه نجا. ومضى يسير متحاملاً محاولاً الابتعاد قد استطاعته. ولا يدري كم مرّ من الوقت قبل أن يجد بيتاً صغيراً متهالكاً، خمّن أنّه كان مأوى

لبعض الرعاة نسوه أو تناسوه. فدخله وهو لا يكاد يقوى على الوقوف، فرمى بنفسه في زاوية بين الأعشاب النامية والأنقاض المتهالكة، ولم يسعفه الوقت ليسترجع الأحداث السريعة التي مرّ بها فقد غطّ في نوم عميق.

في فيرونا، كان جوليان قد فقد الأمل في العثور على صديقه، وإن كان متيقّناً من أنّ سيرجيو يقف خلف الموضوع، فما كان منه في النهاية إلا أن عاد إلى البندقية حيث نجح في استرداد بيته وتفرّغ لعمله. ورسم لوحة كبيرة لألبان سمّاها البطل المفقود، عاشت طيلة قرنين من الزمن شاهدة على شجاعة رجل غريب في إحقاق الحقّ وإسعاد المحزونين.

أمّا ألبان نفسه فقد كان على موعد مع تجربة أخرى في زمن آخر.

(10)

طرف الخيط

نادى جورج على توماس: "بريد لك يا توم"...

أقبل توماس بسرعة ينظر في بريد المساء... من عساه تذكّره الآن، هل هي أمّه في الريف تطمئنّ عليه، أم أخته في لستر ترجوه أن يرسل لها مبلغاً آخر؟ ولماذا يمدّ إليها يده مساعداً، فليذهب زوجها وليشتغل بأيّ صنعة كانت، أو فليلتحق بالجيش مثل كثير من الشبّان والعاطلين في هذه الأيام. لكن لا، فإنّ أصله وتاريخ عائلته ونبل اسمه تمنعه كلّها عن مزاولة مهنة "وضيعة" كعامّة الناس... لماذا اختار الزواج بواحدة من عامّة الناس إذن!

فتح توماس الرسالة فإذا هي، ويا للعجب، من... لندن! من جون الذي كان التقاه قبل يومين. ولكن لماذا يكتب له عبر البريد وهو يستطيع الوصول إليه خلال نصف ساعة سيراً على الأقدام أو أقلّ من ذلك إن هو استقلّ الحافلة مثلاً؟

طوى الورقة بسرعة وتعجّل في إنهاء عمله وكنس أرض الصيدليّة وتوضيب الأغراض ثمّ قصد الغرفة التي يسكنها مهرولاً، وما كاد يدخلها حتّى رمى بنفسه فوق كرسيّه المهترئ وأخذ الورقة من جيبه ففضّها بتأنّ وأخذ يقرأ.

"عزيزي توماس،

أقدّر أنك ستستغرب من مراسلتي لك بهذه الطريقة، ولكنّي أظنّها الوسيلة الأجدى والأسرع لمشاركتك معلومات مهمة تحتاجها، وخاصة أنه ليس بمقدوري مغادرة عملي للاجتماع بك.

كنت لفتّ نظري إلى زبونكم غريب الأطوار، وقد دفعني هذا إلى مراقبته وتعمّد ملاحقته بعينيّ كلّما أمكنني ذلك. والذي توصّلت إليه خلال هذين اليومين وما أكّده لي بعض الجيران أنه يخرج كلّ يوم عند الثامنة صباحاً ويختفي في الشوارع المحيطة ليعود وسط النهار، فيمكث في الشقة، التي اكتراها قبل أسابيع قليلة، ساعة أو أكثر قليلاً ثمّ يخرج مجدداً ولا يعود إليها قبل حلول الظلام. ولا أحد يعرف أين وماذا يعمل،

فهو لا يتكلّم كثيراً، حتّى تحية الصباح إن صادف أحدهم على درجات السلم فإنّه يلقيها بصوت خافت ودون أن يلتفت إلى محيّيه.

هذا كلّه قد يعدّ طبيعياً، ولكنّ العجوز بربرا، وهي التي تقطن إلى جواره في الطابق الثاني تجزم بأنّه غريب الأطوار، وأنّ أذنها اليمنى، السليمة، تلتقط أصوات حركة آتية من غرفته طوال الليل. وهذا يعني واحداً من اثنين: إما أنّه لا ينام مطلقاً... وهذا غير ممكن طبعاً. وإما أنّه يخفي في شقّته أناساً آخرين. ولما كانت بربرا قد جزمت لي بأنّها لم ترقط أحداً سواه يخرج من شقّته أو يدخلها فقد داخلني الشكّ في شأنه... هل تراه يخفي عدداً من المجرمين أو الفارين من العدالة؟!

إلى هنا انتهى بحثي. إن وقفت على جديد أطلعتك عليه أولاً بأول.

صحيح، نسيت أن أخبرك أنّ الشقة التي يسكنها الرجل يملكها السيد روبرت ألان، وهو يؤجّرها لصاحبك بخمس جنيهات شهرياً. وعندما سألته إن كان يعرف ما

مهنة المستأجر أجاب بأسلوبه الكريه: لا يهمّني أن أعرف، كل ما يهمّني هو نقودي، ويوم يتخلّف عن السداد سأرميه في الطريق دون شفقة!

هذا كل ما لديّ، أرجو أني يكون مفيداً لك.

التوقيع:

المخلص جون"

شرد توماس طويلاً وهو ينظر في الورقة... يبدو أنّه اقترب خطوة من الحقيقة أو أكثر ولكنّه لا يزال بعيداً عنها. أعاد القراءة مرّة ثانية وهو يحاول أن يستوعب كلّ كلمة فيها، وما هي إلا لحظات حتّى قفز إلى ذهنه سؤال جوهريّ... من أين للرجل الغامض بالمال؟

من الواضح أنّه لا يعمل، ويسدد خمس جنيهات شهرياً في حين أنّ هذا يفوق ما يجنيه العامل في أسبوع، أو لنقل يوازي ربع دخل الفرد طيلة شهر. وهو فوق ذلك يعطي المشرّدين والمتسوّلين. ومما يزيد المسألة حيرةً أنّه لا تبدو عليه مظاهر الثراء الفاحش ولا يسكن في منزل فخم، وإن كان قريباً من وسط المدينة، ليقول قائل أنّه وريث

عائلة من الأثرياء. من أين له إذن كلّ هذه النقود؟ أظّن أنّ حلّ اللغز يبدأ من هنا، لا ريب أنّي أمسكت بطرف الخيط، والآن دوري لكشف اللثام عن هذا السرّ الغامض. أجل... عندي الآن المفتاح وأعرف ما يتوجّب عليّ فعله.

كان توماس منفعلاً لدرجة أنّه لم يتذوّق طعاماً، ولم يقرأ صحف المساء لا ولم يفعل شيئاً ممّا اعتاد فعله كلّ عشيّة. كان يتحرّك بسرعة وحزم، فتح خزانة ملابسه وطفق يجهّز ثياباً لم يضعها منذ مدّة، وأغراضاً أخرى لا يعرف ما الرابط بينها إلّاه، ثمّ استلّ ورقة بيضاء خطّ عليها كلمات قليلة ثمّ اختفى تحت دثاره الرقيق وغطّ في نوم عميق.

(11)

وحيداً في مواجهة الذئاب

فرنسا، عام 1796، المنحدرات الغربية لجبال الألب.

"يا إلهي، ما هذا البرد الشديد! أحسّ بأنّ أطرافي تكاد تتساقط وأنّ قلبي سيتوقف عن الخفقان".

فتح ألبان عينيه بصعوبة، كان مستلقياً على كومة من القشّ داخل مغارة سوداء موحشة، لكن خارجها كان اللون الأبيض يبسط نفوذه على كل ما تقع العين عليه؛ الأشجار مثقلة بالثلوج، والتربة لا يبين لها أثر، الكلمة العليا للصقيع والسكون يعمّ الأرجاء وكأنّ الحياة توقّفت في تلك اللحظة.

نهض ألبان محاولاً استجماع قوّته وأخذ يفرك يديه وذراعيه، يدور في مكانه ويحاول القفز لعلّه يحسّ بشيء من الدفء. نظر من باب المغارة فلم يتطلب الأمر كثيراً ليدرك أنّه لن يجد الكثير من الحطب قريباً منه. كان لا بد له من أن يمشي يميناً، مسافة مائتي قدم تقريباً

حتّى يصل إلى الجزء الكثيف من الغابة حيث الأشجار تتشابك وتمنع الثلج من ملامسة الأرض. لم يضيّع وقتاً، حمل خنجره وقصد وجهته، ومع أنّها مسافة قصيرة إلّا أنّ سماكة الثلوج لم تكن عوناً له في مسيره.

"لا بدّ أنّه سقط حديثاً" قال ألبان لنفسه، ثمّ استرسل "لكن بكمّيّات كبيرة، وهذا يعني أنّنا مقبلون على شتاء قارس!". وبعد جهد وعناء كبيرين، تمكّن من جمع كمّية لا بأس بها من الحطب، واجتهد قدر المستطاع أن يكون ممّا لم يصبه ماء، لكن هيهات!

عاد ألبان إلى كهفه وأمضى ساعة وهو يحاول تجفيف الحطب وإضرام النار فيه، حتّى نجح أخيراً وقد كادت روحه تزهق، ولكنّ سروره بهذا الدفء أنساه تعب الساعات القليلة الماضية. وما إن دبّ الدفء في أوصاله وعادت حيويّته إليه حتّى شرع يفكّر بالخطوة التالية... ألا وهي الطعام. فمن أين له به والثلج يخفي كلّ أثر والطرائد إمّا مختبئة أو مهاجرة، وعلى ذلك كلّه فهو لا يعرف كم تبعد عنه أقرب القرى والمدن.

يذكر أنّه وصل إلى هنا قبل أن ينام وكانت المجاعة تضرب البلاد وتبيد العباد، وأنّه اجتهد كثيراً ليبقى على قيد الحياة ويساعد في الوقت نفسه المحتاجين بكل طاقته، ولكن أنّى لرجل واحد بإغاثة العشرات بله المئات والآلاف... والملايين! كانت الحرب الفرنسية الإسبانية آنذاك قد شلّت حركة التجارة ومنعت انتقال البضائع فأرخى الركود الاقتصاديّ ظلاله. ترافق ذلك مع موجة صقيع شديدة أتلفت المزروعات وأفسدت المحاصيل، فشحّ الطعام واشتدّت الأزمة فلم تبق للناس قوّة ولا رمقاً حتّى أنّ رغيف الخبز تضاعف سعره عشر مرّات بل أكثر. ولم تكن تلك المجاعة الأولى ولا الأكبر التي تضرب البلاد لكن تتابعها وقرب زمانها فاقم من آثارها وأهوالها.

لقد اضطر لأكل فتات الخبز المتحجر، إن وجده! وقضم الحشرات ومضغ النباتات والتي كان بعضها ضارّاً فتسوء حاله من حيث لا يحتسب. وكم كان يكره رؤية الناس وهم يتقاتلون لأجل رغيف خبز أو قطعة جبن، ولكنّ للجوع سلطاناً وللضرورة أحكاماً. حاول مساعدتهم قدر استطاعته فلم يدّخر جهداً في حثّ الأثرياء على الرفق بالضعفاء، والمزارعين على معاودة عملهم وعدم

الاستسلام، وأهل الحواضر على قصد الجبال والأرياف للصيد والبحث عن البدائل... بذل ما في وسعه ولا يدري هل آتى جهده ثماره أم لا، المهمّ أنّ تلك المجاعة كانت سبب لجوئه إلى الجبال في نهاية المطاف حتّى أوى إلى هذه المغارة ليخلد فيها إلى نومه العميق وسباته الطويل.

سمع قرقرة بطنه، فأخرجه هذا الصوت من عالم الذكريات إلى عالم الواقع... من أين له بالطعام؟

وقف ينظر يمنة ويسرة، وراح يطوف حول الكهف بتؤدة لعلّه يظفر بشيء يؤكل. وبعد ساعة من الجهد الضائع والصمت المطبق، خيّل إليه أنّه يرى فتحة بقدر الكفّ في الثلج، قدّر أنّه ربّما كان جحر حيوان صغير، فلم يتردّد، وأخذ يقترب منها شيئاً فشيئاً حتّى صار في مواجهتها تماماً، وتأكّدت شكوكه عندما وجد الثلج مكوّماً على مدخلها... لا بدّ إذن أنّ حيواناً ما في داخلها أخرج الثلج الذي كان يسدّ مدخل جحره.

استلّ ألبان سكّينه وخلع قميصه متحدّياً البرد الشديد ليضعه على باب الجحر كشبكة صيّاد محترف. ثمّ أخذ غصناً غضّاً طريّاً وطويلاً في آن وغرسه في الثلج، في حفرة أخرى غير بعيدة عن الأولى قدّر أنّها مخرج ثان لنفس الجحر. وبعد عدّة محاولات ابتسم له الحظ وظفر بأرنب سمين أجبره على الخروج طلباً للنجاة، وكلاهما في الحقيقة طالب للنجاة، فكان ألبان أسرع الطالبين وأحكم القبض على فريسته وعاد بها إلى الغار ليتناول ألذّ طعام له منذ أمد بعيد.

"هذا هو الدفء الحقيقي" قال لنفسه، "شواء وموقد وسقف وماء... لم أكن أحلم بهذا قبل أن يأخذني النوم في إحدى جولاته". وهنا تذكّر ندوبه، فشمّر عن ساعده وتحسّس وجنته؛ اثنتان في وجهه وواحدة في ذراعه. لقد نام إذن منذ لقائه الأول بالدبّ خمس مرّات. تعجّب كيف لم يقتله برد الشتاء وصقيع الجبال طيلة هذه السنوات، وكيف لم تفترسه الدببة أو الذئاب، وكيف لم يعثر عليه أحد من المسافرين أو المتجوّلين وهو نائم؟! لكنّه لم يتوقّف كثيراً عند هذه التساؤلات، فكلّ ذلك ليس بشيء أمام حقيقة أنّه ينام ليستيقظ بعد سبعين أو ثمانين عاماً.

"والآن، إلى أين أمضي"؟

يفترض أنّه على بعد أيّام إلى الجنوب من مدينة غرونوبل، وتذكّر خريطة كان قد حصل عليها من أحد الرجال الذين قابلهم لقاء شيء من الطعام كان في حوزته. لم يكن طلب مقابلاً ولكنّ الرجل أصرّ على مقايضة الطعام بشيء، ولم يكن يحمل نقوداً فاختار ألبان الخريطة مقدّراً أنّها ستكون مفيدة له في ترحاله. أمّا الرجل فكان قد بدا لألبان أنّه لا بدّ نبيل أو ثريّ أو رحّالة ضاقت به الأحوال فألجأته إلى ما فعل إذ لم يشأ أن يفقد ماء وجهه... إنّه الجوع يفعل بالناس الأفاعيل!

فردها أمامه وأخذ يحدّق فيها بتمعّن؛ غرونوبل قريبة ولكنّ طريقها جبليّ وعر. وليون يستطيع أن يبلغها خلال خمسة أيام إن هو نجح في اجتياز السلسلة الجبلية التي تليه بسرعة ويسر. لكن ليون على ما سمع مدينة كبيرة وهو يتحاشى هذه المدن، فإنّه بجهله حال البلاد اليوم لانقطاعه الطويل عن الأحداث، بالإضافة إلى هندامه الغريب، سيثير الريبة في المدن أكثر منه في الأرياف. عدا أنّه قد اعتاد على الطبيعة وحياة الجبال، والتخفّي فيها سهل إن دعت الضرورة إلى

ذلك. قرّر أخيراً التوجّه إلى فالنسيا غرباً، والتي قدّر أنّه سيصلها خلال ثلاثة أيّام على الأكثر، وهناك يحدّد خطواته اللاحقة.

استغرق ألبان في أفكاره وأطلق العنان لمخيّلته وذكرياته فتعطّلت حواسّه لحظات... وما كان حريّاً به أن يفعل! فلم يكد يضع الخريطة من يده حتّى تنبّه على همهمة مخيفة آتية من جهة مدخل الكهف، التفت بسرعة فإذا أربع عيون تحدّق به!

كانا ذئبين رماديّين كبيرين، ينظران إليه وعيونهما تقدح بالشرر وأنيابهما تنذر بالخطر. أخطأ إذن عندما ظنّ أنّه وحيد في هذه الأنحاء، لا بدّ أنّ رائحة اللحم المشويّ جذبت إليه هذين الوحشين، ولم يكن يمنعهما من الانقضاض عليه سوى النار التي تحول بينه وبينهما.

مدّ يده بهدوء ليأخذ غصناً عريضاً وحرّك به النار لكي لا تخبو، ثمّ ألقمها المزيد من الحطب فليس الوقت مناسباً لكي تخمد.

"لا بدّ من تصّرف سريع، وإلا فإنّ صبرهما سينفد وشراستهما ستشتدّ".

خطرت له فكرة، فرمى إليهما بشيء من عظام الأرنب كانت ملقاة بجانب الموقد... شمّها أحدهما ولكنّها لم تحظ بإعجابه على ما يبدو. لا بدّ إذن من فكرة أخرى!

أخذ من الموقد غصناً يحترق طرفه وحاول إخافتهما به، ولكنّ حيلته هذه لم تثمر فلهيب النار في الغصن سرعان ما خمد واقترابه منهما عرّضه للخطر.

"يبدو أنّكما مصرّان على العراك".

قدّر ألبان أنّ الجوع وندرة الطرائد في هذا الموسم تسبّبت في ازدياد جوع الذئاب، وأنّها لن تتردّد في التهامه لتضمن بقاءها على قيد الحياة، فحمل خنجره بيمينه والعصا الغليظة الملتهبة بيساره واقترب منهما، ولم يكد يدنو حتّى ظهر له ذئب ثالث كان يختفي خلف صاحبيه أسفل الكهف. تردّد للحظات، أيحجم أم يقدم، ولكنّ الذئاب لم تترك له الفرصة للتفكير واتّخاذ القرار، فسرعان ما بدأت المناوشات وتحرّكت الوحوش الثلاثة محاولة تطويقه وعضّه، لكنّ غريزة البقاء عند الرجل المخضرم كانت أشدّ وأقوى، فأسرع يحتمي

بالموقد تارة ثم يقفز على غرمائه تارة أخرى، واستمرّت المعركة ساعة من الزمن حتّى انتهت بمصرع الذئاب الثلاثة. تنهّد ألبان ولم يصدّق أنّه نجا، لا بدّ أنّ القدر كان في صفّه وإلّا فكيف ينجو؟ وألقى بنفسه إلى جوار الموقد وكان الظلام قد حلّ، وليل الشتاء طويل ولن يخاطر خلاله بمغادرة مكمنه. وكانت ليلة من أعجب الليالي التي قضاها، ما بين صفير الرياح، وعواء الذئاب الذي تحمله، ونعاق البوم وحسيس النار... حتّى طلع الفجر.

جمع ألبان أغراضه وائتزر بفروة ذئب تقيه البرد وحمل عصاه وخرج مع أشعّة الشمس الأولى التي أضفت على الجوّ لمسة دفء خفيفة واتّجه غرباً. كان مسير اليوم الأولّ صعباً ومجهداً للغاية، فقد كان معظمه صعوداً فوق جبال جرداء لم يزدها الثلج إلّا قسوة وخطورة، وتساءل في نفسه: "أيّ مجنون هذا الذي يعبر هكذا جبال في مثل هذه الظروف؟" بيد أنّ المكوث وانتظار النوم مجدّداً غير وارد لديه، فلا بدّ له من المضيّ قدماً في دربه.

كانت ذكرى كلوتيلد ترافقه دائماً، ولكنّها تبهت في كلّ مرّة يستيقظ فيها، وقد كان ندم من قبل على تأجيل عمل شيء يحفظ صورتها

ويخلّد ذكراها، وندم على الفرص الكثيرة التي أتيحت له لعمل خير فلم يغتنمها، فكان ندمه دافعاً له على الاستمرار في طريقه الطويل.

كان اليوم الثاني أسهل بكثير، فقد اجتاز القمّة الأخيرة وبدأ طريقه ينحدر، حتّى أنه اختصر كثيراً منه عبر هبوطه متزلّجاً على جلد ذئب متين. وعند السفح كان الجو أدفأ بكثير، رغم البرد المستمر، ولكن لم يكن الجليد سيّد الموقف كما هو الحال في الجبال. إلّا أنّ صعوبة جديدة ظهرت مع الظلام وهي تكمن في السير عبر الوحول! فاختار أن يقضي الليل تحت شجرة زان معمّرة بانتظار النهار وما يحمله، وكم كانت سعادته غامرة قبيل ظهر اليوم التالي عندما صادف تاجراً متجوّلاً أبدى اهتماماً كبيراً بغنيمة ألبان من فرو الذئاب واشتراها منه بسعر مجز، ولم يضع ألبان وقته فما كاد يصل فالنسيا حتّى سارع لشراء ثياب جديدة وحذاء وطعام وسار يتلقّف الأخبار.

(12)

على ضفاف نهر الشير

لم يرد ألبان المكوث طويلاً في فالنسيا، ولكنّ وجهته لم تكن اتضحت بعد، فاختار البقاء فيها أيّاماً ريثما يحزم أمره ويحكم قراره. ولفتته هذه المدينة بجمالها وأسوارها وموقعها على نهر الرون، ولكن ما لفته أكثر كان قلّة عدد الرجال مقارنة بأعداد النساء والأولاد. وكان أكثر حديث الناس يدور عن الحرب، وعن تحالف الممالك الأوروبية ضد فرنسا، ومشاكل الحاكم الماليّة في باريس، وعن جنرال شابّ تمكّن مع جيشه الصغير من إلحاق الهزائم المنكرة بعدّة جيوش أوروبّيّة.

فهم أنّ ثورة قد نشبت قبل سنوات ضد البلاط الملكي غذّاها الظلم والتمييز والفقر والصراع بين مختلف المكوّنات حتّى انتهت بعزل الملك لويس السادس عشر ثمّ إعدامه قبل ثلاث سنوات. فهل انتهى حقّاً عصر الملوك وتسلّطهم ليبدأ عصر الشعوب وتحرّرها؟

لم يكن ذلك بالمضمون، فما لبثت الثورة أن دخلت في دوّامة تصارع فيها نفسها وتتباين رؤاها حتّى تصل درجة التناقض أحياناً.

أمّا الممالك المجاورة فقد كانت تخشى على نفسها من انتقال النموذج الفرنسي إليها فسارعت إلى تشكيل حلف ضدّ الثورة وجمهوريّتها الوليدة، فكانت حروب جديدة تضيف إلى البلاد تحدّيات ومشاكل هي في غنى عنها.

كان استيعاب كلّ هذه التطوّرات التي تسابق الزمن صعباً بعض الشيء، فامتدّ وجود ألبان في المدينة أكثر مما توقّع حتّى بدأ ماله ينفد.

"لا بدّ لي من الحركة والتنقّل وإلّا فلن يبقى معي مال لأسدد أجرة النزل الذي أبيت فيه ولا الطعام الذي أشتريه".

حزم أغراضه في دقائق وفرد خريطته التي لم تكن كبيرة جدّاً لكنّها كانت تغطي جزءاً لا بأس به من الأراضي الفرنسيّة، أمعن النظر فيها ثمّ قرّر التوجّه إلى عمق البلاد، وخرج يسعى.

سار على ضفاف الرون شمالاً باتجاه ليون حتّى بلغ مدينة فيين بعد يومين كاملين، انحرف بعدها إلى الغرب قليلاً ليتجنّب دخول كبرى

مدن الإقليم، ثمّ أكمل سيره إلى الشمال حيناً وإلى الغرب حيناً آخر مارّاً بقرى ومدن عديدة كان أبرزها روان وفيشي التي وصلها بعد مسير ستة أيام.

كانت غايته مدينة بواتييه التي تنتهي عندها خريطته، ولكنّ بلوغها كان يتطلّب أسبوعاً آخر على أقلّ تقدير، وهو لم ينم منذ أن استيقظ في كهفه قبل عشرين يوماً أو يزيد، وهذا يعني أنّ الوقت المتاح له قبل أن يغرق في النوم مجدّداً يضيق بسرعة، وهو حتّى الآن لم يقم بشيء مهمّ يذكر لا لنفسه ولا للآخرين. وفوق هذا كلّه كان برد الشتاء وأمطاره يضاعفان تعبه وينهكان قواه، ولكن لا بدّ له من المتابعة، فواصل الليل بالنهار، كان يرتاح ساعة ثمّ يمشي ساعتين، إلّا حين يشتدّ المطر فإنّه يضطرّ لانتظار انقطاعه، حتّى وصل بعد يومين ضفاف نهر الشير، حيث كانت تنتظره مغامرة جديدة!

كان الضباب كثيفاً ذلك الصباح، لكنّه سمع صوت استغاثة فألقى حمله جانباً وأسرع يجري باتجاه الصوت. كان تعذّر الرؤية يشكّل حاجزاً صعباً، ولكنّ سمعه القوي أرشده إلى مصدر النداء وسرعان ما وصل ليشاهد ما هزّ وجدانه.

كان ثلاثة رجال كريهو المظهر، قدّر أنّهم من اللصوص وقطّاع الطرق، يحيطون بشابّة حسناء واقعة على الأرض وإلى جوارها آنية مهشّمة من الفخار ودلو خشبي أهريق ماؤهما. وكان خنجر صغير في يد أحد الرجال وآخر طويل في يد الثاني، أمّا الثالث فكان يحمل عصا غليظة بيسراه يضغط بها على كتف المسكينة ويمسكها من شعرها بيمناه. في حين اقترب الآخران وقد تعالت ضحكاتهما الخبيثة ومدّ أولهما يديه ليمزّق ثياب المرأة ويهتك سترها.

همّ ألبان بالانقضاض عليهم لكنّه تصنّع الهدوء واقترب منهم وهو يتفحّص الأرض من حوله ثمّ رفع عقيرته قائلاً:

- يبدو أنّ السادة متعجّلون بعض الشيء!
- ليس هذا من شأنك، انصرف قبل أن تصبح طعاماً للكلاب الجائعة وأسماك النهر.

كان هذا صاحب الخنجر الطويل النصل، وقد التفت إليه حائلاً بينه وبين صاحبيه اللذين تركا ما كانا فيه للحظة ليريا من هو هذا المتكلّم.

- أخشى أنّي لا أستطيع أن أحقّق لكم أمنيتكم الغالية.

- ماذا تقصد يا هذا، قلت انصرف قبل أن أقطّعك بهذا السكّين، أو أحفر أخدوداً ثالثاً في وجهك القبيح.

- لا أظنّ جباناً مثلك يقدر حتّى على خدشي. كم هو دنيء حقّاً أن يتطاول الجرذان على النبيلات!

لم يدر ألبان من أين أتته الشجاعة ليتظاهر بهذه البرودة ويتكلّم بهذه الثقة، ولم يكن قطّ مستهتراً بالثلاثة وبما في أيديهم، ولكن تعمّد استثارة غضبهم ليخرجهم عن رشدهم... إن كان عندهم رشد.

لم يتمالك قاطع الطريق نفسه فجرى باتجاه الرجل الغريب الذي هزء به وقطع عليه متعته، وما هي إلا لحظات حتّى كان على بعد ذراع من ألبان الذي كان لا يزال واقفاً بهدوء واضعاً يديه خلف ظهره. ما إن وصلت شفرة السكين أمام وجهه وأوشكت تمزّقه حتّى انحنى بسرعة إلى اليسار ممسكاً يد المعتدي بيمينه ساحباً إيّاه للخلف، وهاوياً بيسراه على مؤخّرة رأس الرجل بحجر كبير كان يخفيه خلف ظهره. وقبل أن يستوعب الرجل ما جرى له كان ألبان يرميه في ماء النهر البارد ليتخبّط فيه وهو يصرخ من شدّة الألم وهول المفاجأة.

هنا صدم الرجلان وتحفّزا للهجوم، لكنّ ألبان بقي محافظاً على هدوئه. لقد نجح في مباغتة الأول، لكنّه لم يعد بإمكانه صنع الشيء نفسه مع الباقيين. فانحنى ليلتقط سلاح خصمه الذي أفلته قبل أن يقع في الماء، وأخرج من حزامه خنجره الآخر، ونظر إلى الوغدين.

- والآن، من منكما يحبّ أن أقطّعه أولاً، أم أنّكما تفضّلان الموت معاً؟

تبادل الرجلان النظرات من دون أن يتكلّما. كان واضحاً أنّهما متردّدان ما بين الهجوم للانتقام أو الفرار بغية النجاة، فالشرّ الذي عجنهم وعجنوه يغريهم بمواصلة المعركة وخاصة أنّ العدد في صفّهم، بينما الرجل الواقف أمامهم وهدوءه وقوّته تجعلهما يحسبان لقرارهما ألف حساب. لم يطل الأمر فقد قرّرا الهجوم فجريا معاً باتجاه ألبان الذي، وكما فعل من قبل، لم يتحرّك حتّى أشرفا على ضربه، وفي لمح البصر كان ينسلّ من بينهما بمهارة مذهلة، فركل حامل العصا من الخلف ليوقعه أرضاً وغرز خنجره في كتف الآخر الذي صرخ من الألم ولكنّه بالرغم من ذلك استدار وأخذ يضرب بخنجره على غير هدى محاولاً أذيّة خصمه، بيد أنّ ألبان لم يمهله كثيراً فما هي إلّا لحظات

حتّى كان أثخنه بالجراح ثمّ هوى على رأسه بمقبض الخنجر كما كان يهوي من قبل على الأشجار بفأسه فسقط غائباً عن الوعي.

كان صاحبه قد نهض ورأى ما حلّ به، فهجم على ألبان من الخلف ليضربه، غير أنّ هذا الأخير كان متحفّزاً له فرماه بخنجره الذي استقرّ في فخذه فارتمى على الأرض يتلوّى من الألم. هنا كان الرجل الأوّل قد نجح بالخروج من الماء بعد أن خارت قواه ورأى ما حلّ بصاحبيه فألقى نفسه أرضاً واستجدى الرحمة من الرجل الغريب.

طمأنه ألبان:

"لا تقلق، لن أقتلك بيديّ، وإن كنت أرى أنّك تستحقّ ذلك، ولكن سأتركك وصاحبيك للنهر، إمّا ينجيكم معاً وإمّا يغرقكم معاً".

ظهر الهلع على وجه الرجل، لكنّ هلعه لم ينفعه ولا أجدت نداءاته، فقد كان الثلاثة بعد دقائق معدودة مقيّدين إلى جذع شجرة، يلقون بأنفسهم في الماء تحت تهديد ألبان الذي دفع الجذع بقدمه بعد أن استقرّ في الماء ليبتعد بهم النهر ويبتلعهم الضباب.

نظر إلى الشابة بعطف وساعدها على النهوض، فشكرته ودموعها تنهمر على وجنتيها حارّة برغم البرد القارس. وبعد لحظات ظهرت فتاة من خلف إحدى الأشجار واقتربت بحماس ظاهر وقالت:

- شكراً لك يا سيّدي، لقد أنقذتنا من هؤلاء الوحوش. نحن ممتنّتان لك شديد الامتنان. لقد كنت رائعاً حقّاً.
- لا شكر على واجب، ولكن...
- اسمي ماري وهذه جان. لقد خرجنا في الصباح لنحضر الماء، وكنّا نتسامر ونتسابق، وعندما اقتربنا من النهر جرت جان واختفت في الضباب، ولكنّها بعد لحظات قليلة صرخت واستغاثت، ففهمت أنّ أناساً يحاولون الاعتداء عليها، فاختبأت لكي لا يروني وأردت العودة بهدوء إلى القرية لأخبر البقيّة، ولكنّي عندما سمعت صوتك تريّثت واقتربت مستترة لأشاهد ما يحدث عن قرب، فلّما اطمأننت إليك وإلى أنّك لا تريد بنا السوء ظهرت.
- لا تخافا من شيء الآن، وأضمن لكما أنّ هؤلاء الثلاثة لن يعودوا إلى هنا مجدّدا.

- هل تتشرّف بقبول دعوتنا يا سيدي والبقاء فيما بيننا بعض الوقت؟
- يسرّني ذلك، ولكن عليّ أولاً أن أجد أغراضي وسط كلّ هذا الضباب، ثمّ إنّي لا أعدكما بطول البقاء... إلّا إن كان أعداؤكم كثر.
- في هذه الحال سنتمنّى أن يعود الأشرار لنضمن بقاءكم عندنا.

ضحك الجميع وسرعان ما وجد ألبان ضالّته ثمّ ساروا وسط الضباب الذي بدأ ينقشع تدريجيّاً إلى أن وصلوا بلدة صغيرة، وما كادوا يدخلونها حتّى اجتمع حولهم الكثير من النسوة والأطفال. وراحت ماري تحكي لهم ما جرى بحماس وانفعال شديدين، حتّى خيّل لألبان أنّها تروي حادثة أخرى غير التي عاشوها قبل قليل، لكنّه لم يعلّق إذ لم يشأ أن يفسد على الناس فرحتهم، وسار يحيّي الناس ويقابلهم بالتودد والابتسام، لكن لسبب ما أخذت ابتسامته تتلاشى شيئاً فشيئاً.

(13)

بلدة من غير رجال!

وصل الثلاثة إلى بيت كبير جميل مطلّ على ساحة وسط البلدة والناس لا يزالون يحيطونهم بالودّ والترحاب؛ كان هذا بيت جان، وكانت ماري خادمتها، وإن كانت أقرب إلى الصديقة منها إلى الخادمة. وأخذ أهل البيت والجيران يرحّبون بالمنقذ البطل الشجاع، ويكرّرون الشكر ويكيلون المديح، ووضعوا بين يديه الماء والفاكهة، ثمّ ما لبث أن حان وقت الغداء فأقاموا على شرفه وليمة عامرة بما لذّ وطاب من الطعام والشراب.

مرّ الوقت ببطء، وألبان تزداد حيرته ويتحيّن الفرصة للخلوّ بجان لتجيبه عن تساؤلاته حتّى كاد صبره ينفد. أومأ إليها أخيراً فدنت منه بوجهها البشوش، وطلب أن يحدّثها على انفراد، فكان له ما أراد. فقد التفتت إلى الحاضرات وشكرت حضورهنّ وأعلمتهنّ بأنّ السيّد

بحاجة إلى شيء من الراحة والهدوء، فانصرفن. ولمّا خلا المجلس إلّا من ماري التي كانت منهمكة في عملها قال:

- أرجو ألّا تسيئي فهمي، ولكن هناك شيء مريب في بلدتكم هذه. منذ دخلناها هذا الصباح لم أر فيها رجلاً واحداً. أين ذهب رجالكم؟

أجابته جان وقد ظهر الحزن في صوتها:

- لقد رحلوا جميعاً.
- تعنين أنّهم قتلوا؟
- لا، لا... أو لا أظن.
- ماذا تعنين بـ"لا أظن".
- الأزمات التي عاشتها البلاد مؤخّراً جعلت الحياة صعبة لكثير من الناس، وبخاصة الفقراء منهم. فأخذ الرجال يرحلون إلى البلدات المجاورة أو المدن البعيدة بحثاً عن حياة أفضل، على أمل أن يعودوا ويصطحبوا من بعد عائلاتهم، لكن قليلون جدّاً هؤلاء الذين عادوا بعد طول غياب.

- فهمت، ولكنّ هذا لا يفسّر غياب الرجال كلّياً.

- لقد بلغتهم أخبار انتصارات الجنرال بونابارت المتتالية على الإيطاليين في حملته التي بدأها في الربيع. فما كاد يحلّ الصيف حتّى اجتمعوا واتّفقوا على الالتحاق به طمعاً في الغنائم والمكاسب. ومنذ ذلك الحين لم نر رجلاً في البلدة إلّا بائعاً متجوّلاً أو لصّاً متعدّياً. هناك طبعاً القسّ العجوز ولكنّنا نادراً ما نراه، وبعض المقعدين الذين لا يقوون على الحركة وهؤلاء لا يقدّمون ولا يؤخّرون.

- هذا إذن سبب الاحتفاء بي المبالغ فيه! إنّ الناس هنا لفي أمسّ الحاجة إلى رجالهم، ليس لكونهم ذكوراً فحسب، وإنّما أيضاً لكونهم آباء وعمّالاً وحماة لهذه البلدة. ولكن، إن سمحت لي بالسؤال، كيف تتدبّرون أموركم من دون الرجال؟

- النساء يعملن في الزراعة وجمع الحطب وجلب الماء، والصغار يهتمّون بالحيوانات بينما كبار السنّ يساعدون كلّ بما يجيده من تعليم أو تطبيب أو خبرات. وفي الليل نوصد الأبواب ونوزّع الأدوار فيما بيننا ليبقى بعضنا مستيقظاً يحرس البيوت ويدق

أجراس الخطر إن داهمنا شيء نكرهه، خاصة وأنّ أعداد اللصوص وقطّاع الطرق ارتفعت بشكل ملحوظ في الآونة الأخيرة.

- وجان، أين هي من هذا كلّه؟
- أنا... لقد مات زوجي قبل سنتين؛ كان رجلاً ثريّاً ولم يرزق بولد، وورثت عنه أرضاً كبيرة نزرعها قمحاً وهذا البيت وعدداً من الخدم، لكنّي استغنيت عن معظمهم واكتفيت بماري وفرنسواز، المرأة الخمسينيّة ذات الرداء الرمادي، لا بدّ أنّك لاحظتها. لكن بعد الذي حلّ بنا اخترت أن أشارك النساء العمل والجهد، لتشجيعهنّ من جهة، ولقطع حبال الحسد من جهة أخرى.
- حسناً تفعلين يا جان، وأصدقك القول ليس حالكم بالسهل. وهل ما أصابكم أصاب أيضاً ما جاوركم من المدن؟
- لا أستطيع الجزم فإنّا لا نخرج كثيراً، لكن ما فهمناه من الباعة المتجوّلين أنّ هذا حال عدد غير قليل من البلدات والقرى الصغيرة. على كلّ حال أؤكد لك أنّنا جميعاً مسرورون بوجودك بيننا والنسوة يجهّزن لسهرة رائعة تليق ببطل مثلك. كما ونتمنّى

أن تبقى معنا أيّاماً إن لم تكن على عجلة من أمرك، أو حتّى لنهاية الشتاء إن أمكن. أمّا إن أحبّ السيّد العيش بيننا والاستقرار ههنا فهو مرحّب به بالطبع، خاصّة وأننا لا ندري متى يعود رجالنا ويكبر صغارنا.

أنهت جان جملتها الأخيرة وقد احمرّت وجنتاها من الخجل وأشاحت بوجهها تنتظر جوابه.

- سأبقى الليلة هنا إكراماً لك ولصاحباتك، ويؤسفني ألّا أعدك بأكثر من ذلك. بالمناسبة، لست بطلاً ولا سيّداً نبيلاً، إنّما أنا عابر سبيل لبّيت نداء الواجب.
- ممكن، وإن كنت بنظرنا تعدل أنبل النبلاء. وأنت لنا بطل منقذ مهما قلت غير ذلك.

أنهت جان كلامها مبتسمة وقامت تستأذن لتنصرف، ثمّ نادت ماري لتصحبه إلى غرفته ليرتاح من عناء التعب.

كان الجوّ كئيباً في المساء؛ ظلمة الليل الشديدة تهجم بسرعة، المطر ينهمر بشدّة حيناً ورذاذاً حيناً آخر والبرد يشتدّ، وضجيج الصغار سرعان ما اختفى وتوارى داخل الحجرات بسبب هذا الجو الشتويّ الطاغي، لكن في دارة جان كان الأمر على العكس من ذلك تماماً.

كان النساء قد أشعلن الموقد وأضفن إلى ناره أعشاباً برّية فاحت رائحتها الزكيّة على أرجاء الصالة الواسعة. كانت ماري تسعى بهمّة ونشاط وكأنّه يوم عيد أو حفل زفاف، يوم لم يعيشوا مثله منذ أمد بعيد، وخلال لحظات كانت قد ضاعفت عدد الشموع والقناديل حتّى صار المكان كأنّه قطعة من نهار دافئ. فرنسواز هي الأخرى كانت تخرج بدورها أفضل ما لديها من خبرات في إعداد الطعام للعشاء، وكانت الضيفات بدأن بالتوافد واحدة تلو الأخرى، فيهنّ المحمّلة بالحلوى والحاملة الشراب والمشاركة في تزيين الصالة الكبيرة حتّى ليحسبها الناظر مكاناً آخر.

صعدت جان إلى الطابق العلويّ وطرقت بلطف باب غرفة ألبان. انتظرت لحظات فلم تسمع ردّاً... "هل لا يزال نائماً يا ترى؟".

عاودت الكرّة مجدّداً وكانت طرقاتها هذه المرّة أقوى قليلاً من ذي قبل، لكن لا أحد يجيب... "أتراه غافلنا ورحل! ولكن... ولكنّه وعدني بالبقاء الليلة". وكادت تنفجر باكية لكنّها حاولت أن تخفي دموعها ثمّ فتحت الباب وخطت إلى الداخل خطوتين.

على شعاع الضوء الضعيف المتسلّل من الباب، لاحظت أنّ السرير خالٍ، وكانت الشموع منطفئة... "لا بدّ أنّ ماري لم تشأ إزعاجه فلم تشعلها" خمّنت جان، وسرعان ما أحسّت أنّ جوّ الغرفة بارد بخلاف بقيّة الدار. وفجأة، ومض برق في السماء، وعلى ظلاله رأت شبحاً يقف على الشرفة الصغيرة.

وجلت جان لوهلة ثم اقتربت قليلاً ونادت: "سيّدي!". استدار الشبح إليها وقد بلّله الماء ولكنّه لم يقل شيئاً، فكاد قلب المسكينة أن ينخلع من مكانه. بعد قليل، والبرق يرسل ضوءه مرّة أخرى، رأته يدنو ببطء، فازدادت خوفاً وهمّت بالصراخ غير أنّ الصوت انحبس في جوفها... خطت خطوتين إلى الوراء ولكنّها تعثّرت بطيّات ثوبها الطويل فوقعت وقلبها وأحلامها كانت تقع قبلها.

فجأة امتدّت يد في الظلام وأمسكتها برفق ثمّ أوقفتها، وجاءها صوته هادئاً...

- ماري؟
- جان.
- أنا آسف، رأيت باب الغرفة مفتوحاً وبصيص النور يدخل منه، ولكنّي لم أتبيّن إن كان أحد ما في الغرفة أم لا لشدّة الظلام.
- لا بأس، فقط... لقد ظننت للحظة أنّ...
- أنّ لصّاً داهمكم؟
- لا، لا...
- ماذا إذن؟
- أنّك... لا شيء، لا يهم.
- أتوقّع أنّه قد حان وقت الحفلة الموعودة!
- أجل، في الحقيقة، أنا آسفة، لقد طرقت الباب مرّتين، ولمّا لم أسمع جواباً دخلت فلم أجدك. ثمّ رأيت باب الشرفة مفتوحاً والهواء يعبث بالأرجاء فارتبت وخشيت أن تكون قد غادرتنا... ثمّ رأيت خيالك في ضوء البرق فخفت.

ضحك ألبان ثمّ أجابها معتذراً:

- لا بأس عليك، وأعتذر أن أخفتك. والآن هيّا بنا فلا بدّ أنّ البقيّة يفتقدوننا.

- ولكن يا سيّدي، أنت تقطر ماء من رأسك إلى أخمص قدميك!

- ونجحت برؤية هذا برغم الظلام!

احمرّت جان خجلاً، وإن كان لم ير من ذلك شيئاً، ثمّ قالت:

- لا بأس، سأرسل لك ماري بثياب جافّة ونظيفة، وشمعدان يضيء لك أرجاء الغرفة، شريطة ألّا تتأخر بالنزول.

- حسناً، وسأقف أمام الباب لكي لا أخيفها!

- حسناً... أراك بعد قليل.

واستدارت منصرفة ثمّ جمدت أمام الباب. سألها مستغرباً:

- ما الخطب؟

- في الحقيقة، إنّي لا أعرف حتّى اسمك!

- ألبان، تستطيعين مناداتي ألبان فحسب.

وانصرفت وهي تتساءل عن سرّ وقوفه تحت المطر في هذا الجو البارد دون الوصول إلى جواب شاف. خلال دقائق، كانت ماري تحضر بالثياب والشموع المضاءة وسرعان ما التحق بهنّ في الصالة فاستقبل بالتصفيق والترحاب، ثمّ أجلسوه على مقعد وثير أعدّ خصّيصاً له يتصدّر الطاولة الكبيرة، والنساء من حوله يتحرّكن كالنحل في القفير.

افتتحت جان السهرة بكلمة مقتضبة رحّبت فيها بالضيف العزيز وشكرت النساء لحضورهنّ ومساهماتهنّ، ثمّ دعت الجميع لبدء تناول الطعام. ومرّ كلّ شيء على أحسن ما يرام، وأحسّ ألبان أنّه كالملك وسط حاشيته؛ طعام وشراب ورفقة وسرور. تساءل إن كانت كلّ أوقات الملوك كهذه اللحظات، وإن كان يمكن لها أن تدوم، أم أنّها كحياته، مهما طالت فهي تذوي أمام عينيه إلى زوال محتوم.

انهمك الجميع في تناول طعام العشاء وأثنوا على الخبيرة القديرة فرنسواز وعلى اللواتي ساعدنها وشاركنها التجهيز. ثمّ جاء دور الحلوى فكان الثناء أكبر من ذي قبل، ثمّ بدأ السمر دون تدبير

واضح؛ فتيات يغنّين وأخريات يرقصن. نكات تلقى من هنا وهناك وضحكات تتعالى.

كانت بعض العجائز تسترسل في سرد ذكريات الماضي السحيق بإسهاب شديد كاد منه ألبان أن يخرّ نائماً رغم مقاومته الشديدة، وخاصّة أنّه لم يرد جرح شعورهنّ وقد أكرمنه أيّما إكرام، لكنّ الشابات كنّ يتداركن الموقف فيغيّرن الحديث أو يشغلن الجدّات بأشياء جانبيّة تلهيهنّ قدر المستطاع. وهكذا حتّى انتصف الليل فبدأ العدد ينخفض ببطء، ولمّا ولّى شطر النصف الآخر ولم يتبقّ في المجلس إلّا القليل ممّن غلبهنّ النعاس أو الشراب، نظرت جان إلى ألبان فرأته يفرك عينيه بشدّة والتوتر باد على وجهه. دنت منه وهمست:

- هل يحبّ السيّد أن ينام؟

- أرجو أن تعذريني، لكن يجب أن أنصرف.

صعقت جان لهذه الإجابة، فكان هذا آخر شيء يمكن لها تخيّل سماعه، وقرأ ألبان ما كان يدور في ذهنها فقال:

- حقّاً لقد أبديتم الغاية في الكرم، وأنا خجل جدّاً، وأتمنّى بشدّة لو تستمر هذه اللحظات دهراً كاملاً، لكن لا أستطيع البقاء، إنّها مسألة جدّ معقّدة.

- أنت متزوّج؟!

- لا، أجل.. كنت.. لا، ليست هذه هي المسألة... قلت لك إنّه أمر جدّ معقّد.

- وتريد أن تنصرف الآن، والفجر يكاد يطرق الأبواب!

- ولكن صدّقيني بقائي أسوء من رحيلي؟

- لماذا، ما الذي سيحصل إن بقيت؟

- لا أدري...

- لا أفهم شيئاً!

- إنّه... إنّني في الواقع...

لاحظت ماري ما يجري، فأخذت تصرف الفتيات بهدوء لكي لا تلفت أنظارهنّ، وما هي إلّا دقائق حتّى خلا المجلس إلّا من الضيف والمضيفة. قالت:

- اسمع، إن كنت تريد الرحيل فافعل، ولكن كيف سيكون موقفي أمام الجميع غداً؟ سيظنّون أنّك رأيت منّي أو منهنّ ما تكره. أو أنّك غدرت بنا وهربت، وفي كلا الحالتين لن أنجو من ألسنة الناس... ولن يندمل الجرح الذي تخطّه الآن في قلبي.
- امسحي دموعك جان، أتفهّم ما تقولين، ولكن...
- ولكن ماذا، أليس عندك غير كلمة "ولكن"؟
- أخشى أن تكذّبيني إن أنا بحت لك بالحقيقة أو تظنّيني جننت، أو تحسبينه من الثمالة، لكنّي أؤكد لك أنّي لست بمجنون، وأنّي لم أقرب الشراب هذه الليلة.
- أعرف هذا، فقد كنت أراقبك طيلة الوقت. أمّا الجنون، فلم يكن ليخطر على بالي، أو لنقل قبل أن تعلن عزمك على المضيّ الآن.
- حسناً، سأحكي لك كلّ شيء، ولكن عديني أن تسمعيني إلى النهاية حتّى وإن بدا ما سأقوله غريباً، أو مستحيلاً، ولكن ثقي أنّي صادق فيه.

ومضى ألبان يحكي لها قصّته، منذ صراعه مع الدبّ لإنقاذ الصغيرة فيفيان ووالدها، إلى الندوب الثمانية، وكيف ينام دهراً كلّ مرّة يغفو

فيها، وكيف أنّه كان يرى أحياناً آثار شيء صنعه عمداً أو عن غير عمد في الحياة السابقة ماثلاً أمامه في اللاحقة، وكيف نجا من الأسر والطاعون والمجاعة، وكيف أنّه مرّت عليه أيّام تمنّى فيها الموت ليرتاح فلم ينله، وها هو الآن يحلم بالبقاء يقظاً طمعاً في دوام هذا النعيم ولكن هيهات، وحكى لها كيف أنّه عقد العزم على عمل الخير في كلّ مرّة يستيقظ فيها لكي يعطي لحياته معنى وليترك أثراً طيّباً في الوجود، رآه أم لم يره. والآن وهو الذي لم يغمض له جفن منذ ثلاثة أسابيع، لم يعد يقوى على فتح عينيه، ولا يدري كم سينام ولا كيف، كل ما يعرفه أنّه سيغيب عن وعيه، وأنّه سيتبقّى له بعد استيقاظه ندبتان وتختفي الثالثة. فهل تطيق جان سماع هذه وتصديقه؟

سكت ألبان، وشردت جان ودموعها تنحدر على وجنتيها، ثمّ قالت:

- لأجل هذا إذن كنت تعرّض نفسك للبرد والمطر، ولأجله لم تقرب الشراب. لو لم أكن واثقة من صدق مقالك ونبل خلقك لما صدّقت كلمة واحدة مما تفوّهت به. ومع ذلك يصعب عليّ قبوله، ولا يسوغني رفضه. ارحل ساعة تشاء، وأرجو ألّا تلاقي في طريقك مكروهاً أو ضرّاً. لكن إن أردت حقّاً ترك أثر ظاهر في

الحياة فعليك بالمدن الكبرى، ففيها الحركة والتأثّر والتأثير ومنها تصدر القرارات وتدار الحروب وتحاك المؤامرات. وأنصحك بالتوجه إلى باريس أو لندن، فهما الآن كثورين هائجين يكيد كلّ منهما للآخر وما بين تناطح وآخر تزهق أرواح ألوف الأبرياء والضعفاء والمساكين. أمّا أنا، فسأتدبّر أمري... والوداع.

ثمّ نهضت تجري بسرعة إلى غرفتها ودموعها تتناثر خلفها كحبّات اللؤلؤ، وبعد لحظات نهض ألبان ورأسه يكاد ينفجر، فصعد غرفته وجمع جعبته ومضى في غفلة عن عيون الناس، إلّا عينان تراقبانه من خلف ستار النافذة، في ليلة سال فيها من الدموع مقدار ما صدح من ضحكات.

بعد مسير مترنّح مدّة ساعة أو أقلّ، وجد ألبان نفسه أمام مطحنة مهجورة على ضفاف النهر، فتسلّق عليّتها وسحب سلّمها إليه وأوصد مدخلها جيّداً، وادّثر وغطّ في نوم عميق... جدّاً.

(14)

الدليل

كان جورج يفتح أبواب الصيدليّة مع ساعات الصباح الأولى من غير حماس بسبب أجواء الكآبة والخوف التي فرضتها الحرب ويسأل نفسه إن كان سيكسب شيئاً من مهنته هذه اليوم، وكان يفكّر جدّيّاً بتسريح أحد العاملين لديه للتقليل من النفقات، وما كاد يلج حتّى لاحظ ورقة دسّت أسفل الباب... حملها مستغرباً وفضّها فإذا بها تنطوي على كلمات قلائل:

سأضطر للتغيّب عدّة أيام لأمر طارئ، أرجو المعذرة.

توماس

آه... هذا ما ينقصني! هل أبدأ بصرفه هو أم بصاحبه الذي لا يتوقّف عن الثرثرة! ولم يكد ينهي كلامه حتّى جاءه صوت من خلفه:

- صباح الخير يا سيّدي.

- صباح الخير يا ويليام، أراك مبكّراً على غير عادتك!

- لم أستطع النوم جيّداً هذه الليلة، لقد كانت تراودني كوابيس كثيرة مليئة بالانفجارات والدمار والدماء والأشلاء، فلم أعد أجرؤ على النوم، فقلت لنفسي لم لا أصل العمل ولو مرّة في الموعد.

- حسناً حسناً. إبدأ مسح الأرضيّة وتنظيف المكتب والأرفف بسرعة قبل أن يصلنا زبون صباحيّ، ولا تتكاسل فإنّ توم لن يأتي اليوم.

- لماذا يا سيّدي، هل هو مريض؟

- لا، لا أظن. يبدو أنّه أتى قبل شروق الشمس وترك هذه الورقة ليعلمنا بغيابه عدّة أيام.

- هممم، لا بدّ أنّه أمر يتعلّق بذلك الرجل الغريب!

- أيّ رجل؟

- رجل عنده ندبة غريبة على وجهه أتى عدّة مرات وأخذ الكثير من المنبّهات. وكان توم يشكّ في كونه جاسوساً أو ما شابه.

- لا أظن، فقد وصلته رسالة مساء الأمس، أظنّ أنّ أمّه في حاجة إليه وإلّا لما كان تحرّك بهذه السرعة.

- ربّما. سننتظر إيابه ونسأله. بالمناسبة سيد جورج، ماذا تعني رؤية الغراب في الأحلام؟

- تعني أنّه سيفقأ عينيك إن لم تلتفت إلى عملك!

- حسناً، آسف.

وشرع ويليام في عمله وهو يغنّي ويصفر ويتمتم، بينما غرق جورج في مقعده خلف المكتب المليء بالأوراق والدفاتر، مهموماً شارداً كئيباً.

في هذه الأثناء كان رجل كثّ الشارب، ذو لحية شقراء متوسّطة الطول ومسرّحة تسريحاً جيّداً، يخفي عينيه بنظّارات كبيرة داكنة، يعتمر قبّعة عريضة ويرتدي معطفاً طويلاً رغم الطقس الدافئ نسبيّاً، يمشي في شوارع لندن وكأنّه قطار لا يكاد يلتفت بوجهه يميناً ولا يساراً. كان غريباً عن هذا الحيّ ولكن مَن مِن السكان سيهتمّ لأمره، فكل امرئ منشغل بنفسه، وقوته... ونجاته.

بعد أكثر من ساعة من التجوال في شوارع العاصمة العريقة، وجد نفسه أمام المقرّ الرئيسيّ لدوق يورك؛ هذا المبنى الرهيب والذي لا يبعد عن ضفاف نهر التايمز بأكثر من ميل، كان مقرّاً من مقرّات الجيش، وفيه تنعقد المحكمة العسكريّة. ولم يكن يدور في خلد أحد حينها أنّ هذا المبنى ستجري فيه بعد أشهر قليلة واحدة من أشهر المحاكمات العسكرية في تاريخ القضاء البريطانيّ والتي ستصدر القرار بإعدام جوزيف جايكوب بتهمة التجسس لصالح الألمان. في هذا الوقت، كان الرجل يتساءل عمّن تراه سيساق إلى هذه القاعات وتقدّم ضدّه لائحة اتهام هذه المحكمة المخيفة؟

كانت هذه المنطقة، تشلسي، من أكثر مناطق لندن ازدحاماً بالمقارّ الحكومية، وهذا يعني أنّ رجال الأمن والمخبرين كثر هنا، وسرعان ما سيهتدي أحد إليه أو يشكّ في أمره. لا بدّ إذن من أن يبقي حواسّه متحفّزة وأن يبقى متخفّياً قدر الإمكان.

استمرّ سيره ساعات طويلة كان توقّف خلالها عند إحدى دوائر الإعلام التابعة للحكومة البريطانية ومكتب التعبئة المخصّص للمتطوّعين وأحد مراكز الدفاع المدني وصولاً إلى ضاحية بونتونفيلّ

الشمالية وليقوم بدورة واسعة حول السجن الذي شيّد هناك قبل قرن من الزمن ثم ليستدير قافلاً إلى وسط المدينة. كان التعب قد بلغ منه مبلغه، ولكن لا بدّ له من إتمام المهمّة التي جاء من أجلها.

لقد قطع حتّى الآن ثلاثة أميال منذ ابتعد عن محيط السجن، أي قبل ساعة بالتحديد. وها هو يجلس في مقهى قريب من محطّة القطار، وعينه مثبّتة على حانوت خيّاط يطلّ على الساحة الخارجيّة للمحطّة اللندنيّة الرائعة. كانت فرصة ليتناول شيئاً من الطعام ويريح قدميه قليلاً فقد خشي أن تخذلاه بقيّة اليوم لشدّة التعب.

كان يتساءل، ترى من يجرؤ في مثل هذه الأيام على تفصيل ثياب جديدة، وهي تكلّف ما تكلّف، والناس يبيتون على أعصابهم، ويدّخرون ما أمكنهم ادخاره، وكيف والأسعار ترتفع والحياة تزداد صعوبة وخطورة يوماً بعد يوم! وطال انتظاره حتّى بدأت الريبة تتسلّل إلى ذهنه.

نهض وقد حمل الصحيفة التي كان يتظاهر بقراءتها وسار ببطء باتّجاه الحانوت. كان اسم المتجر "فيينّا للملابس العصريّة" وتحته

كتب بخطّ صغير "بإدارة الخيّاط المحترف فرانز كلاين". يبدو أنّه خيّاط نمساوي! تفكيره بالاسم جعله يغفل عمّا كان فيه للحظات، فقد كاد يصطدم برجل ضخم قاسي الملامح خرج لتوّه من الحانوت وعلامات الانزعاج بادية على وجهه، وهو يتمتم بكلمات غير واضحة وإن كان يبدو منها أنّ صاحبها مطلق عنان لسانه للشتائم.

توقّف أمام زجاج الحانوت وأخذ ينظر إلى الداخل. كان يميل بجسده يساراً كأنّه يتمعّن في الثياب المعروضة لجذب الزبائن، لكن عيناه كانتا تختلسان النظر في الاتجاه الآخر، جهة اليمين.

كان رجلان يتحدّثان وأمامهما ورقة مبسوطة. أصاخ جيّداً لكنّ أذنه لم تلتقط شيئاً، لا بدّ أنهما يتكلّمان بصوت منخفض، وكان يبدو على وجوههما الاهتمام الشديد.

طال وقوفه أمام الواجهة الزجاجيّة، وليس هذا من الحكمة بمكان، فقرّر الابتعاد قليلاً ريثما يخرج الرجل الآخر، وبعد خمسة عشر دقيقة مرّت عليه كأنّها دهر خرج الرجل، وسمعه يقول للخياط "إلى الغد إذن، في نفس الساعة".

شرع يلاحق الرجل مجتهداً ألّا يفوته وألّا يلفت إليه انتباهه في آن، ولم يكن ذلك بالسهل إذ كان ضوء النهار لا يزال مشعشعاً والشوارع، على غير عادتها في السنوات الأخيرة، تكاد تكون خالية من المارّة. وفجأة، حدث ما لم يكن في الحسبان!

حانت من الرجل التفاتة مباغتة جعلت مطارده يرتبك، وأخذ ذهن هذا الأخير يعمل بقوّة محرّك قطار سريع، بل بقوّة قذيفة مدفع ألمانيّ ضخم، فانحنى جانباً وهو يتظاهر بالسعال الشديد، ثمّ استقام ويده لا تزال تغطّي فمه واتجه إلى الجانب الآخر من الطريق، وهناك اختفى في مدخل أحد الأبنية يلتقط أنفاسه ويمسح العرق الذي بدأ يغزو جبينه وهو يتمنّى ألّا يكون صاحبه قد فطن إليه، وأنّه لم يبتعد كثيراً. وما هي إلّا لحظات حتّى أطلّ برأسه ليجد الشارع العريض قد خلا من أيّ أثر لمن يطارد. احمرّت بشرته البيضاء من الغضب؛ مسير يوم كامل في تعقّبه وتحمّل الجوع والعطش والنعاس حتّى يفلت منه أخيراً بـ... بالتفاتة!

يقولون أنّ الشر قد يأتي أحياناً بالخير، ويبدو أنّها مقولة تنطوي على قدر لا بأس به من الصحّة، ففي حمأة الغضب ومضت في ذهنه فكرة

عجيبة، تنطوي على قدر كبير من المخاطرة قد يكلّفه حياته، ولكنّها ربّما تكون السبيل الأسرع والأضمن لبلوغ الهدف.

استدار عائداً باتجاه الساحة المطلّة على محطّة القطار وحانوت الخيّاط معاً وهو يفكّر في سبيل لدخول الحانوت والاختفاء فيه حتّى يشهد لقاء الرجلين الموعود بعد ظهر اليوم التالي، ولمّا وصل مشارف الساحة فوجئ بالرجل النمساوي يغلق الستائر الداخليّة لحانوته ويتجهّز لغلق الباب... "يفتح وقت الكساد ثمّ يغلق في وضح النهار، هذا لا يدع مجالاً للشكّ" قال لنفسه.

كان يجب أن يتصرّف بسرعة، أخذ قلماً من جيب معطفه الداخليّ واختار صفحة من صفحات الصحيفة تتكلّم عن مجريات الحرب وتفاصيلها الميدانية وكان فيها كذلك صورة لخريطة تضمّ أجزاء من فرنسا وإنجلترا، صنع دوائر على الخريطة وخطّ خطوطاً بشكل عشوائيّ تحت عدد من الكلمات ثمّ أضاف أرقاماً لا معنى لها أعلى الخبر ثمّ طواها تحت ذراعه وأسرع الخطى.

كان كلاين يهمّ بإغلاق الباب حين اصطدم به موقعاً الصحيفة من يده لتبدو كأنّها وقعت مصادفة، ثمّ أسرع يختفي خلف زاوية المبنى ليرقب ردّة فعله؛ إن كان ما يفكّر فيه صحيحاً فلا بدّ للرجل من الاحتفاظ بالصحيفة والاستغراق فيها ولو للحظات، ولكنّها ستكون كافية لتحقيق المراد. وبالفعل، فقد نظر إليها الرجل النمساويّ باستغراب ثمّ حملها وأخذ يحدّق فيها بتمعّن، فلم يحسّ بالذي تسلّل خلفه والجأ عبر الباب بخفّة وهدوء ليختفي خلف طاولة كبيرة في الزاوية اليسرى من الحانوت واضعاً فوقه بعض الأقمشة لمزيد الحيطة والحذر. وما هي إلّا لحظات حتّى سمع الباب يتحرّك، ثمّ يوصد جيّداً، ثمّ أتاه صوت المفاتيح وهي تعمل فيه عملها، ثمّ صوت الشبكة المعدنيّة وهي تسدل لمنع اللصوص من تهميش الواجهة الزجاجيّة أو كسر الباب الخشبي.

مرّت ساعة ولم يتحرّك الرجل من مكانه، فلم يكن يدري إن كان الخيّاط كلاين سيعود قريباً أم لا. ولكن مع حلول الظلام، نهض وراح يستكشف جنبات المكان؛ كان عبارة عن غرفة كبيرة فيها طاولة مكتب وأخرى للعمل وآلة خياطة والكثير من الأقمشة والأدوات،

وبعض الثياب الجاهزة ودميتان كبيرتان بحجم إنسان طبيعيّ يلبسهما صاحبهما ما شاء من الثياب. وكان لهذه الغرفة باب واحد يطلّ على الشارع الرئيسيّ، وبابان داخليّان، كان أحدهما باب دورة مياه صغيرة، أمّا الآخر فكان مغلقاً بإحكام! حاول فتحه باللين ثمّ بشيء من الشدّة فلم يفلح، فتوقّف عن المحاولة خشية أن يترك أثراً يدلّ على محاولة اقتحام للمكان.

بحث في أدراج المكتب وبين الأوراق التي فوقه مستعينا بشمعة صغيرة أشعلها وهو يتمنّى أن يجد الورقة التي كانت تشغل الرجلين نهاراً ولكنّه لم يهتد لشيء ذي قيمة. قرر في نهاية المطاف أن يخلد للنوم بانتظار الصباح، ونظر جيّداً حوله فاختار ركناً أكثر أمناً من الأول حيث كانت تتجمّع فيه قطع من القماش مختلفة الألوان وفوقها أرفف تحمل لفّات كاملة منها، فحشر نفسه هناك وكوّم الأقمشة فوقه محاولاً إخفاء نفسه قدر المستطاع. كان ذهنه متوقّداً وظنّ نفسه سيصمد ساعة أو اثنتين قبل أن يغفو، ولكنّ المسافة التي قطعها سيراً على قدميه نهاراً ولم يكن مشى مثلها في حياته قطّ كانت كفيلة باستدعاء النوم بالسرعة القصوى فاستسلم له سريعاً.

لم يكن يدري كم الساعة عندما أحسّ بجلبة في المكان، فتح عينيه مستغرباً "هل انقضى الليل بهذه السرعة؟". أبعد القماش عن عينيه بهدوء ففوجئ بالظلام يلفّ المكان، ولم يكن من ضوء إلّا وهج مصباح يدويّ ضعيف. رفع رأسه بحذر، كان هناك رجلان يتكلّمان بلغة لا يعرفها... "لا بدّ أنّها الألمانيّة" قال لنفسه. اتجه أحدهما إلى الباب المقفل فأخرج من جيبه مفتاحاً وسرعان ما عالج الباب فانفتح له ثم دخل الغرفة الصغيرة المختفية خلف الباب وسرعان ما لحق به صاحبه.

من هؤلاء؟ الضوء الضعيف وزاوية النظر المتاحة لا تساعدان على تبيّن ملامحهما. أمّا في الغرفة الصغيرة، فإنّ شيئاً حدث عكّر على الرجلين صفو ليلتهما!

التقطت أذنا أحد الرجلين صوتاً صادراً من الغرفة الواسعة، فأمسك بساعد صاحبه وقال له بصوت منخفض:

- هيه... هل سمعت؟
- أيّ شيء؟

- هذا الصوت، يبدو أنّنا لسنا بمفردنا في هذا المكان!
- هوّن عليك، لا أحد هنا، إنّه الليل الذي يهيّج مخيّلتك ليس إلّا.
- أنا متيقّن ممّا سمعت.

قالها ثمّ عاد إلى الغرفة الكبيرة وهو يجيل ضوء مصباحه في أرجائها... سلّطه على أرجاء الغرفة في مستوى الرأس أوّلاً فلم يظهر له شيء، ثمّ وجّهه أرضاً وراح يدور به يمنة ويسرة دون نتيجة. اتّجه بعدها إلى المكتب فنظر خلفه: لا شيء. وكذلك فعل بالطاولة المرتفعة فكانت النتيجة كسابقاتها، وعندما همّ بالعودة إلى الغرفة الأخرى وقع ضوء مصباحه على أكوام القماش المرميّة تحت الأرفف جهة الجدار فثبّته عليها، لقد خيّل إليه أنّها تتحرك! نظر إليها هنيهة فلم يحدث شيء، خطا حينها باتجاهها ليحرّكها فيبدّد شكوكه غير أنّ صوت صاحبه أتاه يستعجله:

- هيّا لا تضيّع الوقت، يجب أن ننهي الأمر بسرعة.
- انتظر قليلاً لكي أتأكّد من شيء هنا.

- لن تجد شيئاً عندك، ربّما كان الصوت الذي سمعته صادراً عن جرذ تسلّل إلى الداخل أو نسمة ريح حرّكت الباب، تعال ولننه عملنا ثم ننصرف.
- حسناً.

وبعد عشرين دقيقة كان الرجلان ينصرفان وقد أعادا غلق الأبواب بإحكام دون جلبة تذكر. تنفّس الرجل الصعداء، لقد أوشك أمره أن ينكشف وما ذاك إلّا لقرقرة بطنه الخاوي، ولولا ثقة الرجل الآخر المبالغ فيها لكان الآن في عداد الأموات أو المفقودين.

عاد إلى النوم، ثمّ استيقظ مجدّداً مع بدء تسلّل ضوء النهار. كان باب الحانوت لا يزال مغلقاً فاستغلّ الفرصة لتحريك عضلات جسمه وأخذ يتمطّى في مكانه. ثمّ تذكّر ما حاق به ليلاً وتذكّر قطعة خبز في جيبه فأخذ يقضمها لكي لا يفضحه جوعه مرّة أخرى.

دقّت ساعة لندن ثماني دقّات، وبعد نصف ساعة تقريباً كان مالك الحانوت قد وصل ففتح الباب وشدّ الستائر وأخذ يجهّز حانوته كأيّ تاجر آخر، حتّى أنه رفع قطعة قماش وجدها مرميّة تحت الطاولة

المرتفعة فأخذها وألقى بها فوق ما يتكوّم في الركن من الأقمشة.

"دليل خير ربّما"!

بعد دقّات التاسعة بقليل دخل رجل الحانوت وأخذ يتحدّث بلكنة لا تخلو من السخرية والتحدّي في آن:

- صباح الخير يا فرانز.
- صباح الخير أيّها العريف.
- أراك دقيقاً في مواعيدك، كالعادة.
- هكذا يجب أن يكون الرجال يا سيّدي.
- ألا زلت مصرّاً على مزاولة مهنتك في مثل هذه الظروف؟
- قلت لك من قبل حضرة العريف أنّي لا أحسن غيرها.
- فكّر قليلاً يا رجل من ذا الذي سيخيط ثياباً والناس في خضمّ الحرب وتخاف من غدها أكثر من خوفها من الطاعون والملاريا وكافّة الأسقام. ثمّ إنّ أصحابك يتوعّدوننا بالموت والهلاك، أما قرأت أخبار المساء؟
- قرأتها يا سيّدي، وإن كنت أتمنّى أن تفتك الملاريا بهم قبل أن يفكّروا بعمل إجراميّ جديد.

- ألا تتعاطف معهم ولو قليلاً؟ إنّكم في النهاية تتشاطرون اللغة والتاريخ والجغرافيا.

- ربّما كان ما تقوله صحيحاً، ولكنّهم مجرمون وسلطويّون، ولهذا فررت منهم أوّل ما دخلت جيوشهم أراضي النمسا، ولولا ابن خالتي الطبيب الذي سبقني إلى هذه البلاد قبل سنوات لما كنت نجحت في الوصول إلى هنا والعمل في مهنة شريفة.

- آه، أجل. لقد قصصت عليّ هذه الحكاية من قبل. ولكن ألا ترى أنّك تتحدّث الإنجليزيّة بطلاقة لافتة مقارنة بخيّاط؟

- الخيّاط في بلادنا لا بدّ له من أن يكون على قدر كبير من الثقافة ليواكب العصر ويلبّي متطلّبات زبائنه، وبخاصّة الأثرياء منهم. ثمّ إنّي عملت زمناً أمين مكتبة فأفدت كثيراً من علمها ولغاتها، وعملت كذلك لصالح قنصليّة بلادكم في فيينّا طيلة ثلاثة أعوام. ألا ترى هذا كلّه كافياً لتعلّمي الإنجليزيّة؟

- حسناً حسناً، لقد مللت هذا الحديث. سأتركك الآن لزبائنك النادرين جدّاً.

وابتعدت أصوات أقدام الشرطيّ الذي خرج وهو يضحك، كأنّه يأتي ليتشفّى من الخيّاط النمساوي ليس إلّا ثمّ ينطلق لعمله. ولكن، هل حقّاً أنّ هذا النمساويّ يكره الألمان؟

مرّت الساعات ببطء، وكان فرانز كلاين يجلس معظم الوقت خلف مكتبه، يتمشّى حيناً ويترنّم بألحان مختلفة أحياناً أخرى. الذي كان واضحاً وضوح الشمس أنّه لم يكن يكسب من عمله شيئاً يذكر، إذ لم يكن له زبائن يقصدونه، فهو بالإضافة إلى ظروف الحرب فإنّه لم يصل إلى لندن إلّا قبل سنتين فقط، وليست هذه المدّة كافية ليصنع له اسماً مرموقاً في هذا المجال حتّى لو كان في منطقة من أهمّ مناطق وسط لندن، وبالرغم من هذا كلّه فإنّه لم يتخلّ يوماً عن أسلوب عيشه وحانوته ومهنته.

قبل دقّات الساعة الثانية بقليل، دخل رجل الحانوت، وقفز فرانز يحيّيه بحرارة، إن لم يكن لشخصه فليس أقلّ من كونه أوّل من يدخل هذا المكان المملّ منذ خرج منه عرّيف الشرطة في الصباح. بادر فرانز زائره قائلاً:

- في الموعد كعادتك.

- إن لم نكن دقيقين في مواعيدنا فلا مبرّر لوجودنا هنا.

ضحك الرجلان وأخذا يتكلّمان بصوت منخفض ولكن مسموع لمن كان يجلس داخل الحانوت... إن كان فيه أحد! كان معظم كلامهما بالألمانية، وكانت تتخلّله من فينة لأخرى كلمات إنجليزيّة، كان واضحاً أنّها أسماء مناطق خارج العاصمة لندن، بالإضافة إلى أسماء شخصيّات سياسيّة كرئيس الوزراء ونستون تشرشل الذي كلّف بمهامّه قبل أربعة أشهر، ووزير حربه أنطوني إيدن وغيرهما من المسؤولين. ولم يطل اللقاء كثيراً، وبالرغم من أنّ تفاصيل ما جرى لم تكن مفهومة في أذن من يسترق السمع إليهما إلّا أنّ الفقرة الأخيرة كانت بالغة الوضوح؛ فلقد أخرج فرانز رزمة من النقود والسندات وسلّمها لصاحبه، ثم أتبع ذلك بكلام يخيّل منه للسامع أنّه وعد بالمزيد في قادمات الأيام. شكره الرجل ثمّ انصرف وهو يحكم وضع قبّعته على رأسه ليخفي بها ندبة تعبر وجهه من فوق عينه اليمنى إلى منتصف وجنته تقريباً ليختفي في شوارع المدينة الكبيرة.

في هذه الأثناء، كان الرجل ذو الشارب الاصطناعيّ واللحية المزيّفة يبتسم، فقد حصل أخيراً على ما كان يبحث عنه. لكن بقي شيء أخير... كيف يخرج من مكمنه دون أن يراه أحد؟

لم يطل تفكيره كثيراً، فقد نهض فرانز متّجهاً إلى دورة المياه، فاستغلّ توماس الفرصة بسرعة ونهض من تحت الأرفف التي اصطدم بها ظهره دون أن يحدث صوتاً لافتاً. كان يشعر بأنّ مفاصله قد تيبّست لطول بقائه في مخبئه هذا، ولذلك كانت حركته بطيئة بعض الشيء. وعندما همّ بالخروج من الباب خطر له إلقاء نظرة على الطاولة، علّه يجد دليلاً ملموساً يزيد روايته قوّة وصلابة، فاقترب من الطاولة وهو يمسحها بعينيه مسحاً دقيقاً، وما إن مدّ يده ليقلب ورقة لفتت انتباهه حتّى جاءه صوت الخيّاط بنبرة قاسية قائلاً:

- مرحباً!

- مرحباً... آسف لقد... لقد دخلت ولم أجد أحداً فأخذت أبحث عن جرس أضرب عليه لأناديكم.

- الجرس هناك يا سيّد.

وأشار بيده جانباً؛ كان الجرس الصغير واضحاً جلياّ لمن يعبر الباب، وكان بعيداً عن مكتب فرانز بما يكفي ليثير شكوكه بالرجل ذي المظهر الغريب والمعطف المجعّد والشعر المتلبّد. قال وعيناه تدوران في المكان قبل أن تقعا على الركن حيث تبعثرت قطع القماش:

- وكيف يمكنني خدمتك.
- كنت أريد أن أسأل كم يكلّف تفصيل الثياب.
- أي نوع من الثياب تعني؟
- سترة وقميص.
- والقماش؟
- القماش! لا يهم، أيّ نوع كان، من القطن الناعم مثلاً.
- أخشى أنّني لن أستطيع مساعدتك، خاصّة وأنّنا على مشارف الخريف.
- حسناً، شكراً لك على كلّ حال، إلى اللقاء.

وخرج توماس المتنكّر من حانوت النمساويّ وهو لا يصدّق أنّه نجا أيضاً هذه المرّة. لكن طمأنينته لم تدم طويلاً فقد أحسّ بوقع أقدام

تقتفي أثره! أسرع السير فأسرعت الأقدام، كانت الأصوات تتبعه كلّما انعطف يمنة أو يسرة، لذا تعمّد تجنّب الطرقات الضيّقة ففرص النجاة فيها أقلّ إن هو تعرّض لمكروه، وكان في الوقت نفسه يتحاشى النظر للخلف حتّى لا يستفزّ متابعه أو متابعيه فيشتدّوا عليه. فجأة، تذكّر كيف أنّ الرجل ذا الندبة كاد يفلت منه قبل أيّام، فقرر تكرار الحيلة ذاتها، فأخذ يسير باتجاه خطّ سير الحافلات حتّى إذا دنت واحدة منه وتوقّفت لتنزل بعض الركاب تجاوزها وخفّف من سرعته، وما إن أقلعت مجدّداً حتّى كان يقفز في داخلها ويرفع رأسه بحذر ليرى رجلاً يرمي قبّعته ويضرب الأرض غاضباً بقدمه.

بعد أقلّ من ساعة كان ألبان يلج باب شقّته، أمّا توماس فلم يعد إلى بيته، وإنّما اتّجه مباشرة إلى مركز الشرطة ليطلب مقابلة الضابط الذي كلّفه بهذه المهمّة، وكان في تلك اللحظات يشعر أنّه بطل من أبطال الحرب وجنديّ من جنودها... المجهولين.

(15)

وجهاً لوجه مرّة أخرى

المطحنة، صيف 1870.

فتح ألبان عينيه، كان يشعر بالدفء والسكينة. أشعّة الشمس تعبر الكوّة والنافذة التي تكسّر خشبها والسقف المتساقطة أجزاؤه. كان الهدوء يشمل المكان حتّى ليمكن للمرء تمييز طنين النحل وحفيف الأشجار وخرير الماء من بعيد.

"كم مرّ عليّ يا ترى"؟

لم يكن يستعجل الإجابة على هذا التساؤل، فالأيّام القادمة كفيلة بأن تعطيه ما يكفي من الأجوبة.

تحسّس ندوبه... كما توقّع تماماً، ولا غرابة، واحدة في ذراعه وأخرى في وجهه.

"فلنبدأ بالأساسيّات".

أنزل السلم الخشبيّ من العلّيّة، ألقى جعبته من عل ونزل الدرجات، وما إن توسطها حتّى تهشّمت إحداها تحت قدمه فألقى بثقله على التالية فانكسرت هي الأخرى ووقع بظهره على أرض الطاحونة محدثاً جلبة أفزعت فأراً كان يلعب في أرجائها وأخافت الطيور القريبة منها.

"إنه سقوط مؤلم... لحسن الحظ لم أكسر شيئاً من عظامي! المهمّ الآن أن أنهض وأبحث عن شيء آكله ثمّ أمضي في دربي".

ولقد كان بحثه موفّقاً هذه المرة فسرعان ما اصطاد سمكة من النهر شواها ثم أتبعها بثانية فثالثة. كانت واحدة من مثلها تكفيه فيما مضى، أمّا الآن فيجب أن تسدّ معدته سغب السنين!

تمدّد بعد أن هدأ جوعه متأمّلاً السماء الصافية، مستذكراً الحلم الذي رآه قبل استيقاظه مباشرة؛ كانت كلوتيلد تقف إلى جواره، وظهرت جان من خلال الضباب تقترب منهما ببطء وعلى وجهها ابتسامة لطيفة.

أمسكت كلوتيلد يده وضغطت عليها، فلم يزد أن تبسّم هو الآخر...

يا لغيرة النساء!

فجأة تعالت أصوات غريبة، وأخذ الضباب يتبدّد كاشفاً عن أناس يحيطون بهم على شكل دوائر، منهم الأصفر والأسود والملثّم فلا يرى غير عينيه، وهم يدورون ويرقصون ويغنّون بلغات لا يفهمها.. وأحسّ بالدوائر تتّسع وبالمسافة بينهم تتضاعف... ثم تلاشت جان من أمامه وهي تمدّ يدها إليه. وعندما التفت إلى كلوتيلد ليسألها إن كانت رأت ما رآه وجدها تختفي هي الأخرى، ثم عمّ السكون كلّ شيء، وسطع بعدها ضوء أبيض وجد نفسه فيه وحيداً... من خلفه أخذت تظهر أمواج البحر وهي تقترب منه وتدنو فكأنّما هو واقف على الشاطئ وأشعّة الشمس تغمره وهواء البحر يداعب وجهه، عندها أفاق من حلمه على حاله التي كان عليها هذا الصباح.

"الوقت الآن ضحى، ووجهتي باريس، يجب إذن أن أضع الشمس عن يميني وأمشي مع النهر باتّجاه الشمال".

انطلق إلى غايته، وما هي إلّا ساعة حتّى كان قد خرج من المنطقة الحرجيّة التي اختفى فيها هذه السنوات إلى أخرى تكثر فيها حقول القمح والأراضي المفتوحة. عبرها وهو يرى الناس يعملون فيها بأعداد كبيرة، والعربات التي تجرّها البغال والحمير في حركة دؤوبة؛

كان هذا موسم حصاد القمح. وعندما مرّ بالقرب من مجموعة نساء استوقفه غناؤهنّ... أو بالأحرى أغنيّتهنّ!

فجأة ظهر، مثل وميض البرق

أنقذ الروح من الهلاك وأحيا الأمل في النفوس

آه لو كان بإمكانه المكوث بيننا أكثر

لكن طريقه كان طويلاً، وبعيداً

وكما ظهر فجأة عاد واختفى

تاركاً صورته في قلوب الكثيرين

لم يكن هناك مجال للشكّ، إنّها جان... لا بدّ أنّها غنّتها بعد رحيله، وحفظتها النسوة وتناقلنها عبر السنوات، حتّى نسيت قصّتها وظلّت تتردّد أغنية شعبيّة على الألسنة.

"أرجو أنّها صدّقتني... وعذرتني".

تابع سيره باتجاه الشمال، وعند منعطف من المنعطفات وجد برج مراقبة صغير مهجور، وقد سمّوه: قصر الدبّ!

"جميل، أصبح للدببة قصور". قال لنفسه، وتابع مسيره.

في المساء، والعمّال يغادرون الحقول عائدين إلى دورهم، استوقف رجلاً يركب حصاناً، كان يبدو عليه أنّه صاحب الأرض أو ربّما المشرف على العمل، فقد كان يراقب ويعطي الأوامر لا أكثر. ألقى التحيّة بأدب ثمّ سأله عن المسافة التي تفصلهم عن باريس. ضحك الرجل ثمّ أجابه:

"ثمانية أيّام على الأقل، ما لم تستقلّ العربة أو تهبط عليك ثروة من السماء فتركب القطار من بورج إلى باريس".

وانصرف الرجل يتابع أعماله وألبان يتساءل حائراً... القطار! وماذا عساه يكون هذا الشيء؟ على كلّ حال إنّ ثمانية أيّام وقت كثير ولا بدّ لي من حصان أو عربة أركبها. غير أنّ الوقت لم يكن في صالحه ليجد العربة أو الحصان... هذا إن وجد المال اللازم كما قال الرجل، فكلّ شيء بثمن ولا مكان للشفقة.

استمرّ في طريقه، وراح يتابع غروب الشمس عن يساره، وبدأ الظلام يحلّ شيئاً فشيئاً حتّى ساد الأرجاء كلّها، وبعد ساعة أصبح من

المتعذّر استكمال المسير، فقد كان القمر هلالاً وليداً لا ضوء له ليكشف الطريق، فقرّر أن يجلس عند جذع شجرة ليرتاح ويفكّر في خطواته التالية ريثما يطلع النهار مجدّداً.

خمّن أنّه على بعد مسير ثماني ساعات من مدينة بورج، إن كانت المعلومات التي جمعها من الناس في طريقه دقيقة. وهذا يعني أنّه بإمكانه بلوغها بعد زوال شمس نهار الغد إن هو تحرّك فجراً، وهناك يكتشف ما هو القطار وكيف يعمل. لكنّه في الحقيقة سيكتشف أنّ القطار ليس لأمثاله!

كان في مساء اليوم التالي يتمشّى في مدينة بورج، وكانت أكبر مدن محافظة الشير، نسبة لاسم النهر الذي يعبرها، ولفته كيف تغيّرت أشكال البيوت ما بين أمسه القريب ويومه الحاضر، وكيف ظهرت المباني الحجرية عوض تلك المبنيّة من الخشب أو الطين أو كليهما معاً. وكيف تغيّرت أزياء هذا العصر واختلف لباس النساء والرجال عمّا قبل، وخاصة في وسط المدينة. وكيف انتشرت آلات تعزف الألحان العذبة، أو تبثّها دون عزف ولا عازف! أمّا العربات التي تجرّها الخيول فقد صارت شيئاً عادياً جدّاً وأصبحت وسيلة المواصلات

الأساسيّة بين المدن والمحافظات، وأصبح لها نقاط استراحة وصيانة وتبديل أحصنة وما إلى ذلك ممّا لم يكن يخطر له على بال.

كانت كلّ هذه التطوّرات في كفّة وأكثر شيء لفته في كفّة أخرى، ألا وهو تلك المداخن الكبيرة التي نبتت كالفطر في مختلف الأرجاء، تنفث دخانها غيوماً سوداء في كبد السماء كأنّما التنانين تسكنها أو البراكين جمّعت فيها. وكان من بينها مصنع كبير كثير الدخان، السائر بقربه لا يمكن له أن يخطئ ريحه ولا أصواته؛ لقد كان مصنعاً للتعدين يمدّ شركات سكك الحديد بما يلزمها لتشقّ طرق القادم الجديد في كلّ الاتجاهات... القطار.

وصل محطّة القطار أخيراً. همّ الموظّف بإبعاده مباشرة بسبب هندامه الغريب، فهذه القطارات لا يركبها كلّ من سوّلت له نفسه ذلك. وبعد إلحاح شديد من ألبان الذي أبدى استعداده التامّ لدفع ثمن مقعد له على قطار باريس، حوّله الرجل إلى موظّف آخر، فكانت مفاجأته الأخرى... فالنقود التي يحملها قديمة، وحتّى لو استبدلها بأخرى جديدة فإنّها لا تكفي لتسديد أجرة ركوب القطار ولو لنصف المسافة المرجوّة.

خرج ألبان من محطّة القطار وهو مهموم... قال يحدّث نفسه:

"ما زلت أنسى موضوع النقود وما زالت تتغيّر كلّما أتى ملك جديد؛ يريدون تلك التي عليها صورة نابليون الثالث، وأنا الذي لم ير حتّى العملة التي صنعها نابليون الأوّل. يبدو أنّ نابليون هذا ملك البلاد بعد فتوحاته الشهيرة وورّث الحكم لأبنائه من بعده؛ ملكيّة بمسمّى آخر!".

غير أنّ الحقيقة لم تكن كما تخيّل تماماً، وكان هذا ما سيكتشفه في الأيام المقبلة، فنابليون الثالث الذي وصل إلى الحكم عن طريق الانتخاب أيّام ما عرف بالجمهورية الثانية سرعان ما انقلب عليها مرسياً دعائم حكم إمبراطوريّ جديد، ثمّ ما لبث أن تحوّل إلى رجل مستبدّ لا يقبل سماع رأي يعارضه ولو كان ناصحاً أميناً، فقمع خصومه ونفى عدداً منهم... غير أنّ حكمه هذا كان اليوم يحتضر، فقد بدأت سطوة الشرطة تضعف والحراك السياسيّ والفكريّ يزداد. في نفس الوقت كان الامبراطور قد بدأ حرباً خاسرة مع بروسيا والألمان.

"إمّا أن أجد عملاً وإمّا أن أنطلق فوراً إلى باريس سيراً على الأقدام".

عاد ألبان باتجاه وسط المدينة وراح يسأل عدداً ممّن قابلهم عن

عمل يصلح له، وفاجأه أنّ كلّ العمّال مرحّب بهم، لكنّ أيّاً من الأعمال المتاحة لا يناسبه.

كانت فرنسا كما أوروبا بشكل علم تعيش عصر الثورة الصناعية، إنّه زمن الفحم الحجري والمحرّكات البخاريّة والمصانع المتطوّرة، الكلّ يعمل، حتّى النساء والأطفال، في ظروف صعبة وأحياناً مهينة أو خطيرة، وكثرة العاملين تعني وفرتهم، وتعني كذلك قلّة أجورهم. كان يتوجّب عليه أن يعمل عدّة أشهر دون انقطاع ودون أن ينفق ممّا يجنيه شيئاً لأجل أن يحصل على ثمن بطاقة تخوّله ركوب القطار فلم يقبل بالطبع. إنّه يفضّل السير أسبوعاً أو اثنين محافظاً على حرّيّته ومؤدّياً دوره على التحوّل إلى عبد بمسمّى "عامل" عند أرباب الصناعات والأموال، فلم يضيّع وقتاً وخرج لليلته من بورج يمشي على الطريق الترابيّ تابعاً نجم الشمال.

بعد مسير ساعة من الوقت لم يعد بمقدوره تمييز الطريق بشكل كاف فانحرف يميناً عنه ليرتاح في هدأة الليل، وأخذ يتأمّل النجوم ويعدّها ويرسم منها ما شاء له خياله أن يرسم. ولم يكن من شيء يعكّر صفو ليلته وسكونها حتّى وصل إلى مسامعه ضجيج آت من

جهة الجنوب. رفع رأسه باتجاه مصدر الصوت فرأى نقاطاً مضيئة تتحرّك في الظلام.

قفز يتسلّق أقرب شجرة إليه ولبث ينتظر اقتراب عربة المسافرين، أو عرباتهم، فلقد أخذت الأصوات ترتفع وتزداد كلّما اقتربوا منه. وعلى نور المصابيح المتوهّجة، رأى ألبان شيئاً لم يكن رآه من قبل.

عربات كثيرة، بغال، خيول، كلاب وحيوانات لم يتبيّنها في الظلام. كان من بين العربات ما يحمل الأقفاص، وما يحمل معدّات غريبة، ومنها ما هو معدّ للنوم... من هؤلاء؟

كانت التساؤلات تتسارع إلى ذهنه، ولكن الأسرع منها كان صوت الكلاب التي بدأت تنبح متوقّفة أمام الشجرة التي تسلّقها. اقترب أحد الرجال من الشجرة ورفع قنديله عالياً، وشكّ ألبان إن كان الرجل قد رآه أم لا، ولكنّ شكّه سرعان ما زال عندما ناداه الرجل:

- مساء الخير.
- مرحباً.

- يبدو أنّ الكلاب أزعجتك، أرجو ألّا تعتب عليها فهي تفعل ما تمليه عليها طبيعتها.
- لا بأس، هل ستهاجمني إن نزلت؟
- لا لا تقلق، ما دمت لا تظهر عدوانيّة تجاهها.

قفز ألبان واقترب من الرجل بحذر ثمّ سأله:

- هل تسافرون شمالاً؟
- أجل، نحن ذاهبون إلى باريس. كنّا ننوي تمضية عدّة أيام في أورليون ولكن طال مكوثنا في بورج فقرّرنا سلوك الطريق الأقصر إلى باريس كسباً للوقت. وهناك يفترض بنا أن نبقى أسبوعين أو أكثر لنقدّم عروضنا قبل أن نعاود التنقّل مجدّداً.
- ولكن ما هي عروضكم، أعني ماذا تفعلون؟
- هذا سيرك متنقّل، ألا يظهر لك؟ الظلام شديد لكنّ سيركاً كهذا لا يمكن أن تخطئه العين.
- ماذا تعني بالسيرك؟
- ماذا؟ ألم تشاهد سيركاً في حياتك؟ يبدو أنّك في حالة يرثى لها.

- أنا آسف حقاً، لقد أمضيت وقتاً طويلاً جدّاً في مكان ناء بعيد، وهجرته قبل أيام قليلة فوجدت الحياة قد تغيّرت.

- أنت محقّ، كلّ شيء يتطوّر بسرعة كبيرة. لا عليك. نحن نجول المدن نقدّم استعراضات بهلوانية وعروضاً من الخفّة والضحك، وكذلك عروضاً لحيوانات مدرّبة تدريباً عالياً، ونكسب المال ممّن يهرعون لمشاهدة هذه العروض.

- رائع، لا بدّ أنّها عروض مذهلة.

- هي كذلك. أنصحك بزيارة واحد منها عندما تبلغ غايتك، لا بدّ أنّها ستبهرك.

- سأفعل. ولكن قل لي يا سيّدي، ألا تحتاجون أحداً يعمل معكم هذه الأيّام؟ أستطيع القيام بالكثير من الأمور، أهتمّ بالحيوانات مثلاً أو العربات أو أيّ شيء. فأنا ذاهب إلى باريس وليس عندي مال لأركب.

- ليس ينقصنا عمّال، لكن إن أردت فبإمكانك مرافقتنا حتّى نصل، وبالمقابل تؤدّي ما يطلبه منك كارلوس من خدمات.

- بكلّ سرور، ولكن كيف أعرف كارلوس هذا؟

- سأدلّك عليه، إنّه مدرّب الحيوانات، ستجده آخر القافلة مع الفيل الصغير.
- فيل!
- فيل ونمر وقردة ودبّ، سترى ما لم تره طيلة حياتك.

وضحك الرجل وسار مشيراً إليه ليتبعه، بينما كانت كلمة "دبّ" تتردّد في أذنيه... ها قد عدنا مجدّداً.

التحق ألبان بكارلوس وسار الجميع بصمت حتّى انتصف الليل، فأعطى قائد القافلة، أو السيرك المتنقّل، إشارته بالتوقّف للمبيت، وسرعان ما أخذت كلّ عربة مكاناً لها في السهل الكبير وتوزّع الجميع كأنّهم يعرفون أدوارهم جيّداً واستعدّوا للنوم. بعد ساعة لم يعد يسمع إلّا أصوات بعض الحيوانات وبعض جنادب الليل، وغطّ الكلّ في صمت عميق... سوى ألبان.

كان يجلس مسنداً ظهره إلى عجلة إحدى العربات، يفكّر في حاله وفيما يحيط به، في هؤلاء الناس وواقعهم وأحلامهم. هم مثله لا

يعرفون الاستقرار، وعندهم مهامّ لا بدّ لهم من أدائها، يتكسّبون من أهل المدن، ثمّ يرحلون ولا يبقى من آثارهم إلّا ذكرى اللحظات الجميلة، أمّا الأسماء والوجوه فسرعان ما تغرق في بحر النسيان؛ هكذا هي سنّة الحياة.

صوت غريب أخرجه من أفكاره... كأنّه نحيب أحدهم! ولكن لم يكن الصوت آتياً من جهة أماكن المبيت، وإنّما من جهة الأقفاص الكبيرة! ما الذي يجري هناك يا ترى؟

نهض ألبان وراح يمشي بهدوء متتبّعاً الصوت الذي كان يعلو مرّة ويخفت أخرى، حتّى وصل إلى مصدره فوجده قفص الدبّ!

"الدبّ يبكي!" قال متعجّباً. دنا منه حتّى التقت أعينهما، هذه المرّة لم يكن في النظرات أيّ تحدّ، وإنّما كانت نظرات رأفة وشفقة وعطف. جلس أمام الدبّ ومدّ يده بهدوء، شمّها الدبّ ثمّ أحنى لها رأسه، فأخذ ألبان يمسح رأسه وهو لا يدري ماذا يفعل.

- إنّه دبّ عجوز، وسيرتاح قريباً، قريباً جدّاً.

جاءه الصوت من الخلف فاستدار وجلاً، وعلى انعكاس الأضواء الخفيفة المنبعثة من القناديل تبيّن وجه كارلوس. كان يكبره قليلاً في السنّ، ربّما بخمس أو عشر سنوات كما خمّن. وكان قاسي الوجه فلا يستطيع الناظر إليه تبيّن مشاعره بسهولة.

- هل يحتضر؟
- لا أظن. إخاله يشكو الوحدة والضعف فحسب.
- وكيف عرفت أنّه سيرتاح قريباً؟
- لأنّي سأريحه، قبل أن نصل إلى باريس. سأضع له طعاماً مسموماً فينفق ونتخلّص منه.
- هذا فظيع!
- لا تكن حسّاساً لهذا الحدّ، إنّما هو وسيلة لكسب المال، وقد أصبح بطيء الحركة ولا يؤدّي كلّ ما يطلب منه. هذا عدا ضعفه فقد أصبحنا مضطرين لزيادة نفقات علاجه، إضافة إلى كون طعامه مكلفاً، فلا مفرّ من التخلّص منه. وهذا يا صاح مآل كلّ الحيوانات... بل ربّما مآلنا جميعاً.
- ولكن، ألا توجد وسيلة أخرى؟

- يؤسفني أن لا، فالشباب لا يعود.

- قل لي يا كارلوس، ألا تشعر بشيء اتجاه هذه المخلوقات؟ أعني بأنّك تقضي معها وقتاً طويلاً، ألا يؤدّي هذا إلى التعلّق بها كما يتعلّق الناس بعضهم ببعض؟

- ربّما، ولكن عندما تختبر الحياة يقسو قلبك فلا يعود فيه متّسع للعواطف. خذ هذا الدبّ على سبيل المثال، بوني، لقد اقتنيته صغيراً، كان هذا قبل أكثر من ثلاثين سنة، وكنت شابّاً أعمل مساعداً في السيرك. حينها كان الناس في الجبال ينظّمون حملات صيد للتخلّص من الدببة بحجّة أنّها تقتل ماشيتهم وتتلف مزروعاتهم، فانخفضت أعداد هذه المفترسات بشكل كبير حتّى كادت تنقرض. وحدث أن وجدت الدبّ الصغير باكياً، كما تراه الآن، كانت أمّه قد قتلت ولم يكن قادراً على العيش بمفرده بعد، لقد كان واحداً من آخر أفراد سلالته، فحملته إلى الرجل الذي كنت أعمل معه. تردّد بداية لصغر سنّ الدب من جهة، ولأنّه لم يكن مألوفاً وجود مثله في السيرك من جهة أخرى، ولكنّه رضي في النهاية، فكبر بوني معنا وتعلّم، وأصبح عامل جذب لكثير من

الناس. والآن دنت نهايته كما ستدنو نهاية غيره يوماً، فماذا تغني المشاعر والأحاسيس.

- صدقت، ولكن أن تقتله بيديك، إنّ هذا لأمر عسير. لم لا تطلقه في البرّيّة ليقضي فيها أيامه الأخيرة؟

- سيقتله الناس، لن يتساءل أحد إن كان يشكّل خطراً أم لا. وهو كذلك لم يعتد حياة البرّيّة، فسيكون من الصعب عليه البقاء فيها على قيد الحياة. من ثمّ تخيّل موقفنا إن سمع الناس بهروب حيوان مفترس من مجموعتنا، ستكون هذه بداية النهاية لعملنا وسنخسر كلّ ما بنيناه خلال سنين طويلة.

- فهمت... يبدو أنّه لا حلّ آخر. لكن عندي رجاء، وأرجو ألّا تخيّبني فيه.

- ما هو؟

- ألّا تقتلوه وأنا بينكم... سأترككم عندما نصل باريس، وبعدها تفعلون ما شئتم.

- لا بأس، بضعة أيّام لن تفرغ كيس الرئيس من النقود.

ضحك الاثنان، وشكره ألبان الذي تمنّى في سرّه أن يعدل كارلوس عن رأيه أو أن يكون أجل بوني أسبق إليه من سمّ صاحبه، وانصرف كلّ منهما إلى النوم الذي لم يكن يعرف طريقاً إلى صاحب الدبّ، صاحب الندوب.

(16)

باريس

وصل ألبان إلى باريس، المدينة التي سمع عنها كثيراً ولم يزرها إلّا في مخيّلته. كانت المدينة الكبيرة تبدو جديدة بشكل لافت للنظر يتعارض وتاريخها الطويل؛ طرقات عريضة، حدائق جميلة، أحياء نظيفة وأبنية حديثة. وعندما سأل عن السرّ وراء ذلك قيل له بأنّها نزوة نابليون الثالث الذي أراد أن يبني العاصمة من جديد على طراز لندن، أو على طرازه هو بشكل أدقّ.

كان يجوب الطرقات نهاراً يتسمّع أخبار الناس وأحاديثهم ويشاركهم أحياناً نقاشاتهم، ويسامرهم ليلاً ما أتيح له ذلك، ثمّ يقضي بقيّة الليل جالساً على ضفاف نهر السين أو مستلقياً في إحدى الحدائق الكبيرة. لكن سرعان ما اصطدم بحقيقة أنّه ليس في جيبه من النقود شيء يذكر. كان يحاول أن يتدبّر أمره بصيد السمك أو قطف بعض التفّاح، إن وجده، ولكن لم يكن ذلك بالأمر السهل.

أخذ يبحث عن عمل، وكانت مشاريع تجديد المدينة قد توقّفت بسبب السخط الشديد عليها لأسباب كثيرة ليس أقلّها كثرة الديون التي تسبّبت بها، ناهيك عن تعطيل حياة الناس في أماكن كثيرة وتغيير النسيج الطبقي والاجتماعي للمدينة، وكان توقّفها يعني إغلاق باب فرص عمل كثيرة في الوقت عينه. لكنّه لم يستسلم، وما زال يسعى حتّى وجد ما كان يبحث عنه... بائع صحف.

إنّ عمل بائع الصحف يمكّنه من التجوال ومخالطة الناس بحرّيّة، ويمكّنه كذلك من الاطلاع على الأحداث في وقتها دون الحاجة فعلاً إلى شراء ولو صحيفة واحدة. كانت معظم الصحف والمجلّات تطبع في الدائرة الثانية من دوائر العاصمة الفرنسية، بينما كان نصيب ألبان شارع ليفيس ومحيطه في الضاحية الثامنة عشر. كان يذهب قبل طلوع الشمس لينتظر صدور الصحف اليوميّة أو الأسبوعيّة، ثمّ يحملها إلى كشك الرجل الذي يعمل لديه شمال العاصمة ثمّ يتوجّه بعدها إلى النقطة التي يقضي فيها معظم يومه ليعود مساء بغلّته إلى مشغّله فينال حصّته من الفرنكات بشكل يوميّ.

كانت المسافة بين المطبعة وكشك المبيع غير بعيدة، وهي لا تتطلّب أكثر من نصف ساعة سيراً على الأقدام، وأمضى ألبان حوالي العشرة أيّام في هذه المهنة كانت كفيلة له بالاطلاع على مجريات الأمور والتغيّرات التي حصلت منذ أن نام آخر مرّة وحتّى اللحظة.

وكان ممّا لفته الأهمّيّة الكبيرة التي توليها فرنسا لأراضي ما خلف البحار، تلك الأراضي البعيدة جداً والتي وصلتها جيوشها في سباق محموم مع البريطانيين والإسبان وغيرهم لتقاسم أرجاء الأرض، والتي اكتشف أنّها أكبر بكثير ممّا كان يتخيّل. وجد ألبان هذا التمدّد مدعاة للنظر، وعدّه من المفارقات العجيبة؛ فالعبوديّة كان قد تمّ إلغاؤها في كلّ من البرتغال وبريطانيا وفرنسا وغيرها قبل سنوات طويلة، في حين أنّ ما تفعله هذه الدول من استغلال تلك البلاد البعيدة والاستيلاء على ثرواتها وتسخير أهلها لأعمال تصبّ في صالح القويّ الأجنبيّ لا صالح صاحب الأرض لا يختلف كثيراً عن العبوديّة المحاربة.

وأخذت هذه الأفكار تراوده كثيراً... ماذا نفعل في الجزائر، في قلب أفريقيا، في الهند الصينيّة وفي أقاصي البحار؟ وظلّت تراوده حتّى تجرّأ

ونطق بها ذات مساء في حانة من حانات الدائرة الثامنة عشر، وكان اليوم يوم سبت والحانة ممتلئة عن آخرها.

تعالى بداية الصياح والصراخ لإسكاته، وعندما حاول تبرير موقفه لم يجابه بغير الشتائم والكؤوس المتطايرة. بيد أنّه لم يفهم، فلم يتردّد عدد من الرجال بحمله ورميه في الشارع كالكلب الأجرب. واقترب عناصر من شرطة المدينة على أصوات الصياح التي تبدّد هدوء الليل، وعندما علموا السبب تولّوا هم أيضاً ضربه ورفسه كأن لا قيمة له في الوجود ولا معنى... ولكنّ صوتاً أتاهم من الخلف غيّر مجرى الأحداث؛ فلقد تقدّم نحوهم شابّ أنيق يبدو أنّه لم يتجاوز الثلاثين من العمر وطلب منهم بصوت هادئ ونبرة حازمة أن يتوقّفوا! ظنّ ألبان أنّ هذا المسكين سيشاركه المصير ذاته، لكن رآهم على العكس تماماً يفسحون له المجال ويخاطبونه بالأدب والاحترام... "من تراه يكون هذا الرجل؟".

دنا منه وسأله برفق:

- هل بيتك قريب يا سيّدي؟

- ليس عندي مكان ألجأ إليه أيّها المحترم.

أجاب ألبان بصوت متقطّع أضناه ألم الضربات المتوالية على جسده وألم الرفض والإيذاء اللفظيّ لمجرّد تفوّهه برأيه... كم هو بشع مواجهة الفكرة بالقوّة!

- لا بأس، ستكون ضيفنا الليلة وغداً نتحدّث في جوّ أفضل.
- شكراً لك أيّها النبيل، لا أدري كيف أشكرك.
- لا داعي لشكري، بل اشكر مساعدي بيير الذي أسرع ونقل إليّ تفاصيل ما جرى.

ونظر إلى الرجل الواقف بالقرب منه طالباً منه المساعدة لحمل هذا الغريب إلى بيته. وضعاه في العربة وانطلقوا، فكان أن وصلوا وجهتهم بعد وقت قصير، وكان هذا السيّد صاحب البيت طبيباً فأشرف على تنظيف جروح ألبان وتخفيف آثار الكدمات، وتركه لينام، لكنّ وقت النوم لم يكن بعد قد حان، فأمضى الليل كلّه يفكّر... من عساه يكون؟

في الصباح، دخل بيير مبتسماً ومحيّياً ألبان الذي بدا أفضل حالاً بكثير. قال له بعد أن اطمأنّ عليه:

- سنتناول طعام الفطور بعد قليل، جهّزت لك ملابس جديدة عوض تلك التي قطّعها الغوغاء.
- شكراً لك يا سيّد بيير.
- لا تناديني سيّد أرجوك، بيير تكفي.
- حسناً، كما تحبّ. ولكن عندي سؤال أرجو أن تجيبني عنه.
- تفضّل.
- من هو صاحبك، السيّد؟ هو طبيب على ما فهمت، ولكن...
- ألم تعرفه؟
- للأسف، لا أعرف كثيراً من الناس في هذه المدينة الكبيرة.
- أنت غريب إذن. إنّه جورج كليمنصو، العمدة الجديد للدائرة الثامنة عشر في باريس. وأنا صديقه، ومساعده لو شئت، بيير فيرمو. وأنت؟
- ألبان، خادمكم ألبان.
- هيّا بنا إذن، فالعمدة ينتظر لقاءك.

تجهّز ألبان بسرعة وخرج متلهّفاً يتبع بيير في صمت حتّى دخلا غرفة الطعام، وكانت غرفة أنيقة ومتواضعة في آن. رحّب به العمدة الشابّ أشدّ الترحاب ودعاه ليشاركه طعام الفطور، وعلى المائدة تبادلوا أطراف الحديث حول مواضيع شتّى لا تمتّ إلى ما حدث الليلة الماضية بصلة وكان أغلبها حول هزيمة الإمبراطور في معركة سيدان والثورة وإعلان الجمهوريّة الثالثة. وعندما فرغوا من طعامهم دعاه مضيفه إلى غرفة مكتبه، وفيها دار حوار سينطبع في ذهن العمدة الشاب طوال حياته.

- شدّني جدّاً ما أخبرنيه بيير عن حديثك في الحانة أمس يا ألبان، وأحبّ أن أسمعه منك مباشرة لأعرف كيف أزنه وأقيّمه قبل أن أصدر حكمي في قبوله أو رفضه.
- وهل سأضرب مجدّداً إن أنتم رفضتموه؟

ضحك الطبيب من كلّ قلبه ثمّ قال مطمئناً ضيفه:

- لا، لا تقلق من هذه الناحية. غاية ما يمكن أن أفعله هو إبقاؤك في ضيافتي ليلة أخرى.

- إذن من مصلحتي أن أغضبك لأفوز بحسن الضيافة.
- هات أغضبني إذن.
- كلّ ما فعلته أمس هو أنّي انتقدت التوسع الفرنسي والأوروبيّ في أرجاء الأرض. ليست المشكلة في السفر والترحال والاكتشاف، ولكن في وضع اليد بالقوّة الغاشمة على ثروات تلك البلاد. بأيّ حقّ نصادر أراضي الناس وأملاكهم، ونسرق ذهبهم وثرواتهم؟ بأيّ حقّ نجبرهم على العمل لصالحنا مقابل فتات الخبز؟ إنّما نحن في الإنسانيّة سواء، وإن كانت القوّة في صالحنا اليوم فإنّها ستكون في صالح غيرنا غداً، وإن نحن رضينا بما نفعله بالضعفاء اليوم فسنرضى بما يفعله بنا القويّ غداً. لكن على ما يبدو فإنّ الناس هنا لم يعتادوا سماع هذا النمط من الأحاديث التي تعكّر صفو مزاجهم وتفسد سكرة أحلامهم.
- لنفرض أنّك محقّ، يبقى أنّ تلك البلاد فيها من الثروات ما فيها، فهل تريدنا أن نتخلّى عنها ببساطة! لو فعلنا لأخذها غيرنا من منافسينا لا أهل البلاد كما تحبّ أنت أن يحدث.

- إن كانت المسألة مسألة مصالح اقتصاديّة بحتة، فلماذا إذن إدخال الحضارة والتقدّم في الموضوع كلّما تحدّثوا فيه في الصحف وعلى المنابر؟ والأخبار الواردة من هناك تشهد أنّنا لا نساوي بين أناسنا وأناسهم، فلماذا التغنّي بالمبادئ؟! ثمّ هل يظنّ الساسة هنا أنّ أهل تلك الشعوب سيظلّون على سكوتهم، لا بدّ وأن يثوروا يوماً ويطلبوا الثأر والانتقام، فنكون جنينا عليهم وعلى أنفسنا.

- كلام جميل، ولكن ألا تظنّ أنّه مبالغ فيه. بمعنى أنّ هذه البلاد المستعمرة كانت من الضعف والتخلّف بمكان جعلنا قادرين على وضع اليد عليها. وبالمقابل فإنّنا سننقل إليها أفضل ما عندنا، ألا وهو ثمار الحضارة والعمران والعلم الذي وصلت إليه بلادنا في حين لا تزال بلدانهم في عالم النسيان.

- لو فرضنا أنّ هذا صحيح فإنّه لا يحيل الظلم عدلاً ولا الحقّ باطلاً. أنظر إلى بلادنا كيف كانت قبل قرون قليلة، هل تخلّفنا الذي كنّا فيه يعني أن تشرّع أبوابنا للدول الأقوى لاستغلالنا؟ فكيف نرضاه للآخرين ونرفضه لنا.

- أراك تتكلّم بثقة يا ألبان كأنّك درست تاريخ البلاد.

- أتكلّم بما رأيت وسمعت.

- تقصد بما قرأت!

- كما تريد، وهناك شيء آخر. أحبّ أن أضيفه، لم أقله أمس، وربّما لو قلته لكانوا أجهزوا عليّ بسببه.

- وما هو؟

- لقد سمعت ورأيت نساء وأطفالاً وشيوخاً هنا في فرنسا يعملون في ظروف لا يقدر عليها حتّى الحجر، كلّ ذلك لكي لا يمدّوا أيديهم للناس يسألونهم لقمة العيش، أليس حريّاً بساسة هذه البلاد الالتفات إلى هؤلاء والاعتناء بهم وتحسين ظروف حياتهم عوض الاهتمام بتحسين ظروف معيشة أهل المستعمرات على ما يدّعون؟

- أظنّك محقّاً في هذا الشأن، ولهذا أضع من وقتي في السياسة أكثر ممّا أضع في عملي كطبيب بغية مساعدة هؤلاء الذين أشرت إليهم وأمثالهم، وإن كان الصوت الذي تكلّمت به أمس غير مسموع فمن يدري، ربّما يأتي يوم ويصبح هو الصوت الأقوى،

ولا بدّ لكلّ شيء من بداية، وربّما كنت أنت شرارتها يا ألبان، فلا تحقرن ما قمت به ولا تندم عليه.

- لست نادماً يا سيّدي، وإن كنت لا أخفيك أنّه أحزنني. ولكن هل أفهم من رضاك عمّا قلته أنّ إقامتي هنا انتهت؟
- أنت مرحّب بك ساعة تشاء، ولكن لن أحسم القول في الأفكار التي طرحتها قبل أن أشبعها نظراً.
- حسناً. هل تأذن لي إذن بالانصراف؟
- وإلى أين ستذهب؟ قلت ألّا مأوى لديك هنا.
- صحيح، ولكنّي يجب أن أرحل، أريد أن أصل البحر.
- البحر! ولكنّه بعيد جدّاً من هنا.
- فليكن، إنّما عليّ أن أقصده.
- وأيّ جهة من البحر تريد؟
- لا أدري... أيّها أقرب؟ أريد العبور إلى لندن.
- بإمكانك إذن ركوب القطار إمّا شمالاً وإمّا غرباً، وقطار الغرب أسرع. السكّة الحديديّة تصل حتّى شيربورغ على شاطئ بحر المانش ويقطعها القطار في ساعات معدودة، ومن هناك

تستطيع ركوب البحر إلى وجهتك. أتمنّى لك سفراً موفّقاً أيّها الرجل الطيّب، واستعن ببيير للوصول إلى محطّة القطار فعنده خبرة كافية بها، لكن أنصحك أن تسرع، فالألمان في طريقهم إلينا ولا أحد يدري مآلات الأمور.

شكر ألبان العمدة الباريسي الشابّ وودّعه وهو يتمنّى أن يكون سبباً في غرس بذرة طيّبة في قلب سياسيّ واعد، ومضى مع بيير إلى محطّة القطار.

بعد ظهر اليوم كان ألبان وبيير في المحطّة، وهناك واجهتهم مشكلتان. الأولى أن لا قطارات لهذا اليوم، وذاك المتّجه إلى شيربورغ ينطلق صباح اليوم التالي. أمّا الثانية فكانت أن لا مقاعد شاغرة على متنه، إلّا مقاعد في الدرجة الممتازة، وهي غالباً للنبلاء والأرستقراطيين، وكلّ ما كسبه ألبان من عمله في شوارع باريس لا يكفي ليضع قدمه على عتبة مقطورة هذه الدرجة. لكنّ الموظّف كان على درجة من الخبث لا يستهان بها، فناداه بعد أن أدبر وعرض عليه عرضاً بدا للوهلة الأولى مغرياً:

"هات ما معك من النقود وسأساعدك لتصعد عربات نقل البضائع وتختبئ فيها، وهكذا تصل وجهتك ولا يطالبك أحد ببطاقة ركوب، فما قولك؟".

لم يجد بدّاً من القبول، فاتفقا، وبات ليلته في الشوارع الحديثة وحيداً بعد أن ودّع صديقه الجديد بيير، ووصل مبكّراً إلى محطّة القطار، وأصرّ ألّا يعطي الرجل النقود قبل أن يصعد إلى العربات التي وصفها، فقبل هذا الأخير على مضض، واختبأ ألبان طاوياً جسده بين الصناديق والحقائب بشكل مؤلم، وسار به القطار غرباً إلى أرض الأحلام، إلى مكان وزمان جديدين.

(17)

الحرب

يتردّد في الجنبات دويّ هائل يصمّ الآذن، وأصوات أزيز في السماء تأتي من كلّ مكان، ويختلط ضجيج المحرّكات بالصرخات والصياح والعويل، حتّى الأرض كانت ترتجّ كأنّما زلزال يتمشّى في جنباتها... هل هي نهاية العالم؟!

بعد قليل تصدح في الجنبات كلمات بصوت مرتفع، كأنّها صدى متضخّم لأوامر تعطى هنا وهناك بلغة فرنسيّة ركيكة! وضجيج آلات هادرة لا يعرف كنهها، وأصوات أقدام تجري في كلّ اتجاه كأنّما قطيع غزلان يفرّ من أمام أسود جائعة، ثمّ يعمّ الأرجاء صمت حذر متقطّع.

فتح ألبان عينيه وقد سيطرت عليه الصدمة حتّى أنسته للحظة نفسه، ودفعته غريزة البقاء للنهوض طلباً للنجاة والهرب، لكنّ رأسه اصطدم بشدّة بشيء صلب كاد يتسبّب له في إغماءة طويلة الأمد!

"ما الذي يجري هنا؟" تساءل ألبان باستغراب، لم يدم استغرابه كثيراً فقد تذكّر أنّه متمدّد في فتحة في جدار دهليز أسفل كنيسة قديمة. ربّما كان من الدهاليز التي تؤدّي إلى مجاري المياه الآسنة، أو إلى شبكة أنفاق تصل أطراف المدينة بعضها ببعض، فمن يدري ما كان يدور في خلد مصممي هذه الأماكن المظلمة. وأين سيجد مكاناً آخر يختفي فيه وقد داهمه النوم في مدينة كهذه؟ إنّها حياة لا ترحم! لقد ولّى زمن الكهوف والأرياف، زمن الطمأنينة والدعة، والكلمة الفصل الآن للمدينة، للتجمّعات السكّانيّة الكبيرة، للمصانع والمصارف والتحالفات السياسيّة، وهذه كلّها في المدن لا القرى. ولكن ما الذي يدور في الخارج؟

سحب ألبان نفسه وسار متعثّراً في الممرّ المظلم باتّجاه فتحة تصريف مياه تطلّ على الشارع الجانبيّ يسار الكنيسة، كان الضوء المتسلّل من بين قضبان هذه الفتحة ضعيفاً، وما إن وصل إليه حتّى تبيّن له أنّ النهار كان في ساعاته الأخيرة.

"عجيب، هذه أوّل مرّة أستيقظ فيها مساء!".

سمع أصواتاً تتكرّر لم يدرك كنهها، كانت أصوات طرقات سريعة، ولكن على أيّ شيء؟ ظهر بعدها أناس يجرون بسرعة وهم يحملون في أيديهم أشياء مصنوعة من المعدن والخشب، أشبه ما تكون ببنادق الجنود ولكنّها أصغر حجماً بكثير.. أتراها بنادق هذا العصر!

خلفهم، كانت تتقدّم عربة كبيرة يجلس فوقها رجال بزيّ موحّد، وخلف العربة رتل من الجنود يتقدّمون وهم يوجّهون أسطواناتهم يمنة ويسرة، وفجأة ظهرت حركة في الشارع المقابل فانطلقت هذه الأسطوانات تصبّ حممها باتّجاه مصدر الحركة ثمّ ما لبث أن سمع صوت ارتطام جسد بالأرض تلاه جري عدد من الجنود اتّجاهه.

"هذه أسلحتهم إذن، وصوت الطرق السريع الذي سمعته كان صوت طلقاتهم... لكم تطوّرت آلة الحرب في هذه الغفوة!".

لكنّ ألبان لم يكن بعد رأى شيئاً يذكر من تطوّر أسلحة الفتك والدمار هذه. فجأة توقّف جنديّ ونظر باتّجاه الفتحة التي يختفي خلفها. جمد ألبان في مكانه، هل حقّاً رآه هذا الجنديّ، وهل يتوجّب عليه الهرب أو التخفّي؟ وإن كان سيهرب فإلى أين؟ وما هي إلّا

لحظات حتّى كان الرجل يوجّه ماسورة سلاحه باتجاه الفتحة مطلقاً لها العنان لتفرغ من ذخيرتها ما شاء أن تفرغ.

سقط على الأرض جثّة هامدة، دون حراك، وعلى وجهه تجمّدت ملامح الذعر وفقدان الأمل، وسال دمه الدافئ على الأرض بينما وقف الجنديّ وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضا ومباهاة، أمّا ألبان، فقد أدخله هذا الدم في دوّامة من الحيرة والذهول... كانت المرّة الأولى في حياته التي يقتل فيها إنسان أمامه، أو بالتحديد فوقه. تبدو الجثّة لشابّ حدث، لا بدّ أنّه كان يختبئ خشية أن يراه الجنود، لكن اختباؤه لم يكن موفّقاً فترك الدنيا في لحظة، وسالت دماؤه على المختبئ تحته وهو لا يدري كأنّها تستنجده وتطلب منه الثأر لصاحبها، لكن كيف؟ ومن هو حتّى يواجه جيشاً جرّاراً مسلّحاً بأسلحة لم ير لها مثيلاً في حياته كلّها؟

ماذا؟ هل سيجزع الآن وهو الذي واجه الموت مرّات ومرّات؟ صحيح أنّه نجا منها جميعاً، بيد أنّه لم يشارك قطّ في حرب حقيقيّة، وها هي تطلبه الآن وليس من مفرّ.

في نفس الوقت، تذكّر ألبان أنّه لم يبق له إلّا ندبة واحدة. تحسّس جسده... هكذا إذن، اختفت تلك التي على الذراع وبقيت الأخيرة على الوجه، إنّ أيّ خطأ يقترفه قد يعني بالنسبة له ضياع الفرصة الأخيرة للثأر لهذا الشاب المظلوم، وربّما ضياع فرصه هو نفسه كلّها... ما الذي سيجري له في نهاية هذه الحياة المعقّدة؟ لم يكن ألبان يملك جواباً لتساؤلاته هذه كلّها ولكن كان هناك أمر واحد متيقّن منه؛ هو أنّه لا بدّ من عمل شيء.

لاحظ أنّ الجندي يقترب من الفتحة، همّ بالابتعاد والاختفاء ريثما يزول الخطر، ولكنّه وقبل أن يشرع بالحركة لاحظ ورقة كانت تنقبض عليها يد الشاب الصريع، أسرع بانتزاعها ثمّ ابتعد خطوات قليلة واضعاً الورقة في جيبه، ربض في الظلام، تنبّهت حواسّه كلّها، وانقطع نفسه للحظات.

- هل مات؟
- من الطلقة الأولى!
- فتّشه جيّداً، ربّما كان يحمل ما يدلّنا عليهم.

- لا شيء، إنّهم كالجرذان، يظهرون بكلّ وقاحة ثمّ سرعان ما يختفون بلمح البصر، لو كانوا رجالاً كما يظنّون أنفسهم لخرجوا إلينا ولصفّينا حساباتنا وجهاً لوجه.
- لا تقلق، إنّما غرّهم هذا الذي في لندن، ولا أظنّهم سيعيشون طويلاً.
- ماذا تقصد؟
- لقد أدركوا عظمة جيوشنا الجرّارة، ولا أظنّ ما يفعلونه أكثر من فورة سرعان ما تتبدّد ليعود كلّ امرئ منه إلى واقعه ومشاكله. ثمّ إنّ السلطات المحلّيّة ستكون مجبرة على مطاردتهم، وبالتالي لن تبقى هذه مهمّتنا نحن.
- أرجو ذلك. هيّا بنا نلحق بالبقيّة قبل أن يبتعدوا، وقبل أن تعاود طائرات الإنجليز غاراتها.
- وهذا الفتى، ماذا سنفعل به؟
- اتركه هنا، سيكون عبرة للآخرين أو دافعاً لهم للظهور، وإن فعلوا فسيكونون صيداً سهلاً على كلّ حال.
- حسناً، هيّا بنا.

وانصرف الرجلان بثبات، بينما كان ألبان يفكّر بحيرة: "لقد مرّ وقت طويل منذ أن سمعت فيها أحداً يتكلّم الألمانية! إذن هم ألمان، لا بد أو نمساويون، أو سويسريّون أو... ولكن كيف وصلوا إلى هنا؟".

جلس ينتظر هدوء الحركة في الشوارع المحيطة وهو يتذكّر كيف ترك باريس في المرّة الأخيرة واختبأ داخل القطار المتوجّه إلى شيربورغ، بين الصناديق والبراميل والحقائب والبضائع المختلفة، وكيف أنّه كاد ينكشف أمره أثناء التوقّف في محطّة مدينة كان، وكيف وصل في النهاية سالماً إلى وجهته الساحليّة، وكيف أنّها لفتت نظره ببحرها الهائج وسفنها الضخمة، وبآلاف المسافرين الذين يمرّون من خلالها إلى مختلف وجهاتهم. وتذكّر كذلك سعيه لركوب العبّارة المتّجهة إلى إنجلترا وكيف رفض القبطان ذلك لعدم شرائه التذكرة وهو الذي لم تبق باريس في جيبه فرنكاً واحداً فعاد يجرّ أقدامه كئيباً، وبقي أيّاماً بين الأزقّة الرطبة وأرصفة المرفأ دون أن يجد من يقبل حمله مجّاناً.

جرّب أن يعمل حمّالاً أو صيّاداً أو بحّاراً إن قبل أصحاب السفن، وكان الحظّ يبتسم له يوماً ويكشّر عن أنيابه يوماً آخر، ولكنّ النوم

كان أسرع إليه من أجرة ركوب البحر، فأخذ يبحث عن مخبأ آمن حتّى اهتدى إلى هذا المكان. الشيء الوحيد الذي شعر أنّه اكتسبه من تلك الجولة كان تعلّم عبارات إنجليزيّة ومن قبلها مقابلته لكليمنصو، السياسيّ الباريسيّ، وتساءل هل نجحت محاولاته في إقناعه باتخاذ موقف جريء يا ترى؟ للأسف، لا يستطيع أن يعرف في القريب العاجل، فصوت الحرب أعلى من كلّ صوت، وهو الآن في زمن آخر.

كان الظلام بدأ يتسلّل، فاتجه صعوداً إلى الباب السرّي الذي يفضي إلى داخل الكنيسة. تسلّل إليها بهدوء محاولاً ألّا يصدر أيّ حسّ ينبي عن وجوده، وما إن خطا خطوات في الظلام حتّى فوجئ بصوت يناديه من خلفه:

- إنّهم بانتظارك في الغرفة السرّيّة يا بني، لقد طلبت منهم الدخول إليها خشية أن يداهمنا الألمان ويفتّشوا المكان.

التفت ألبان إلى محدّثه وهو يحاول أن يستوعب ما سمعه، وأن يقرّر في نفس الوقت الحركة المناسبة، لكن كانت الجرعة المتلقّاة أصعب من أن تهضم بسهولة. عاد الراهب يقول:

- ألا تثق بي يا ولدي؟ ألهذه الدرجة تمكّنوا من التأثير على فكرك وقلبك!
- سامحني يا أبت، أنا متعب قليلاً وأحتاج بعض الوقت لأستوعب الأمور.
- تعال، سأقودك إليهم بنفسي لتتيقّن أنّي لست أسلّمكم، أو أسلّم أيّ إنسان يطلب الأمان في بيت الربّ.

وسار ألبان خلف الراهب بصمت ومئات الأسئلة تعصف برأسه. دخلا القاعة الرئيسيّة التي لم يكن يبدّد ظلمتها غير ضوء خفيف منبعث من شمعدان مذهّب قريب من المذبح. اتّجها إليه، ثمّ انعطفا يساراً حيث ترتفع الأبواق الكبيرة التي تصدح بالترانيم خلال القداديس، وفي قاعدتها الخشبيّة كان أحد أجزاء الواجهة المزخرفة قد أزيح ليكشف عن ممرّ صغير ينبعث من عمقه ضوء خفيف. تنحّى الراهب جانباً وأشار إليه فدخل، حانياً ظهره، واتّجه ببطء وحيرة إلى مصدر الضوء فوجده نابعاً من غرفة تختفي داخل جدران هذه الكنيسة القديمة...

"مخبأ ممتاز" قال لنفسه.

تابع طريقه حتّى وصل الغرفة، واستطاع قبل أن يصل أن يميّز أصوات عدد من الأشخاص لكنّه لم يتبيّن ماذا كانوا يقولون. خطا إلى الداخل وما كاد يصل ويستقيم واقفاً مجدّداً حتّى وجد أربع فوّهات بنادق تتجّه نحوه، وجاءه صوت حادّ:

- من أنت؟
- من أنتم أوّلاً؟
- نحن من يطرح الأسئلة هنا.
- وبأيّ شيء سينفعكم اسمي؟
- كفّ عن المراوغة وقل، كيف وصلت إلى هنا، وهل معك أحد.
- ليس معي أحد، وصاحبكم القسّيس هو من جاء بي إلى هنا، فقد ظنّني واحداً منكم.
- فتّشه جيّداً يا بول.

واقترب أحد الرجال الأربعة يدسّ يديه في ثنايا ثياب ألبان وما يحمل، وعندما وصل إلى كيس نقوده وأخرج ما فيه أخذته موجة من الضحك، حتّى أنّ الآخرين زجروه لكي لا يلفت إليهم الأنظار.

- خمسة فرنكات من أيام نابليون الثالث، لا بدّ أنّ الذي أعطاك إيّاها أراد أن يهزأ بك. يا لك من شحّاذ قليل الحظّ.

- لست شحّاذاً!

- ومن تكون إذن؟ وريث الأباطرة أم أميراً هارباً من دول الشمال. إنّ ثيابك الرثّة هذه لا تؤهّلك لأكثر من شحّاذ أو مجنون، أو ربّما الاثنين معاً.

واستمرّ الرجل يضحك وهو يتابع تفتيشه، وفجأة، حلّ الوجوم محلّ السخرية والاستهزاء، فقد عثر على الورقة التي كان ألبان قد أخذها من يد الشاب الصريع.

- من أين لك هذه الورقة؟

- من يد صاحبها.

- وأين هو الآن؟

- رحل بعيداً.

- وهل قال لك شيئاً بخصوصها؟

- لا شيء.

- لا أصدّقك، لا بدّ أنّك سرقتها منه، أو...

- لم أسرقها، ولم أقربه بسوء.

- وأين كان ذلك؟

- هناك، في الشارع خلف هذه الجدران، اذهب وانظر إليه واسأله بنفسك إن شئت.

- لكنّك قلت قبل قليل أنّه رحل!

- أجل، فقد مات.

- هل قتلته؟

- لا.

- من فعلها إذن؟

- الألمان.

- وكيف أعطاك الورقة؟

- أخذتها دون أن أسأله، فلقد كان غارقاً في دمائه.

- رأيته وأخذت الورقة منه ولم يسلبوك إيّاها بل وتركوك على قيد الحياة، كيف تتوقّع منّي تصديق ما تقول.

- كنت مختبئاً حين حدث كلّ شيء، وقد سقط صريعاً أمامي، ولاحظت الورقة في يده فأخذتها لأحاول معرفة السبب الذي

قتلوه لأجله. وقد نظرت إليها سريعاً فلم أفهم منها شيئاً فاحتفظت بها لأقرأها لاحقاً وأدقّق فيها النظر.

- لن تستطيع قراءتها بالطبع، فهي رسالة مشفّرة، أم حسبت أنّنا مستهترون فيما نفعل! ثمّ هل تريد أن تقنعني بأنّ شحاذاً مثلك يحسن القراءة!

- قلت لك لست شحّاذاً، وأؤكّد لك أنّي أحسن القراءة. لقد تعلّمتها من قبل أن تولد!

- مضحك جدّاً! دعنا من هذا وقل لي، هل وجدوا معه شيئاً آخر؟

- لا شيء.

- لماذا أنت واثق لهذا الحدّ؟

- لأنّي سمعت أحدهم يسأل صاحبه إن كان وجد شيئاً فيجيبه الآخر بالنفي.

- هل تعني أنّك تتكلّم الألمانيّة؟

- بطلاقة.

- وماذا يضمن لنا أنّك لست قاتله وأنّك لست جاسوساً للألمان؟

"كفى يا بول".

كان هذا صوت أكبرهم سنّاً. كان رجلاً طويلاً قويّ البنية ذو شارب دقيق وقد بدأ الشيب يغزو رأسه. "لا بدّ أنّه رئيسهم" خمّن ألبان، "يبدو أنّه تجاوز الخمسين من عمره".

سكت قليلاً ثمّ أكمل:

- إنّي أصدّقه، ثمّ إنّ هنري شابّ يقظ ومخلص وما كان ليسمح لأحد بأن يأخذ منه الرسالة ما دام حيّاً.
- ولكن يا موريس، لا يمكننا المخاطرة.
- الدرب الذي سلكناه محفوف بالمخاطر، لا تكاد تخلو ثانية واحدة فيه منها.
- وما الذي تقترح علينا عمله الآن؟
- أظنّ أنّنا أمام فرصة سانحة قد لا تتكرّر.
- مزيداً من الإيضاح!
- مرّ أسبوعان منذ أطلق الجنرال ديغول نداءه من لندن، والناس خائفون لم يتفاعلوا مع خطابه كما يجب، ولا ألومهم فهم لم ينسوا بعد ويلات الحرب العظمى، وهذه الأخيرة لا أظنّها ستكون أهون من سابقتها، بل على العكس، فهي على الأغلب

ستفوقها في المآسي والأهوال والتشريد والدمار. ولكنّ الأمل منعقد على الشباب، وهؤلاء لا بدّ من البحث عنهم واختيارهم بعناية شديدة لكي لا ننكشف. لقد رأيتم اليوم كيف فقدنا رجلين من خيرة رجالنا، ولولا القسّيس الطيب لكنّا جميعاً في قبضة الألمان. أرى أنّ من الحكمة تأجيل المواجهة المسلّحة ريثما يزداد عددنا وتقوى شوكتنا.

- ماذا، ونجلس في بيوتنا ننتظر الموت؟ ما الفرق إذن بيننا وبين الخونة الذين سلّموا للغزاة؟

- لم أقل أنّنا لن نفعل شيئاً، على العكس، سنفعل الكثير؛ سنستمرّ بالتجنيد وتصيّد الأخبار وتوزيع المنشورات المناهضة للاحتلال وحكومة فيشي. والأهمّ هو استعمال السلاح الأكثر فعالية، ليس البندقيّة أو المسدّس وإنّما الحيلة والمكر.

- تقصد أن نوهم الألمان أنّنا معهم؟

- شيء من هذا القبيل.

والتمعت عيناه وقد تسمّرتا في عيني ألبان.

(18)

في لندن

تمدد البان على سريره وهو يسترجع تفاصيل ما جرى في الأسابيع الماضية، كانت خطّة عبقريّة من موريس. إنه لرجل داهية! كان ضابطاً في الجيش الفرنسي خلال الحرب الأولى، حصل بعدها على عدد من الترقيات خلال عقدين أمضاهما في صفوف سلاح البحرية، لكنّه اضطر لترك الجيش قبل اندلاع الحرب بسنتين بسبب داء الشقيقة الذي أخذت تزداد حدّته ووتيرة نوباته، فالتمس إعفاءه من مهمّاته طلباً للراحة والعلاج، وها هو الآن يضع كلّ ما اكتسبه من خبرات السنين الماضية في خدمة قضيّته رفقة عدد محدود جداً من الرجال والنساء. لكن وبالرغم من التخطيط الجيّد والحسابات الدقيقة فإنّ الخطّة كانت تنطوي على مخاطرة كبيرة جداً، عدا الأهوال اللاحقة والموت المحدق الذي كاد أن يحصد الزورق بمن حمل أثناء الإبحار في طريقه إلى إنجلترا.

كانت الخطّة تقضي بأن يذهب ألبان إلى الألمان على أنّه واحد منهم ويخبرهم بوجود قنبلة أسفل جسر يعبر من فوقه قائد الحامية العسكريّة في المدينة. وأنّه سمع هذا من رجلين يتهامسان، فتبعهما واحتكّ بهما متهادياً كأنّه ثمل، ونجح في نشل محفظة من جيب أحدهما والتي كانت تحوي رزمة من النقود ورسالة عن موعد قارب تهريب سيحمل مهاجرين عبر المانش إلى إنجلترا. وفعلاً جهّز بول ومن معه القنبلة ووضعوها أسفل الجسر المتّفق عليه وانصرفا كأن لا علاقة لهما بالموضوع. كانوا يعرفون أنّها ستضيع، وأنّه ليس من السهل الحصول على واحدة مثلها عندما تدعو الحاجة، ولكنّ لكلّ شيء ثمناً وهذا ثمن الخطّة.

كانت القنبلة طعماً مزدوجاً، فبه سيعرفون أنّ المدينة لن تكون لقمة سائغة يهنؤون بها، وفي الوقت نفسه فإنّهم سيضعون ثقتهم في مواطنهم الجديد وهذا هو الأهمّ. فبعد أن تأكّدوا من وجود القنبلة ونجحوا في تفكيكها بيومين، حضر ألبان إلى مركز القيادة طالباً مقابلة حاكم المدينة الفعليّ القائد برجر، وقد عرفه العسكريّ الآذن الذي كان حاضراً المرّة الأولى فسهّل له أمر اللقاء، وفيه عرض ألبان

بصراحة عليهم أن يرسلوه في القارب الذي سيحمل "المخرّبين" إلى إنجلترا، فهو يتقن الفرنسيّة ولن يشكّو فيه، وفي نفس الوقت يكون على مقربة منهم فيطّلع على أسرارهم ويرسلها إلى المركز في شيربورغ ومنه إلى القيادة المركزيّة. وبعد نقاش وأخذ وردّ وافق القائد برجر على هذا المقترح، فهو لن يخاطر بأحد رجاله، ولن يضرّه إن خلت المدينة من بعض خصومه. ثمّ إنّ الحصول على مصدر معلومات من خلف صفوف العدو بواسطته هو لنقطة عظيمة تحسب له وتضاف إلى سجلّه، وربّما حظي بسببها بترقية مهمّة أو مكافأة مجزية. وهكذا كان، وخلال أيّام مرّت قبل الموعد المحدّد للانطلاق كان ألبان يتجهّز نهاراً مع الألمان حيث يدرّبونه على مختلف أنواع الأسلحة وأجهزة الإرسال والاستقبال وكيفيّة تشفير الرسائل وبالعكس. أمّا في الليل فكان يلتحق بموريس ومن معه ليكملوا الاستعدادات ويضعوا اللمسات الأخيرة على خطّتهم. وتذكّر كم أضحك الذئب العجوز، كما اختار أن يسمّيه، عندما وافق على الاشتراك في خطّته شريطة أن يتبادل الثياب مع بول، وأن يأخذ بنقوده الفضّية القديمة نقوداً أخرى ورقيّة مما يحمل صاحبه الذي

لم يتمكّن من إخفاء الامتعاض الذي علا وجهه. وما هي إلّا ليال قليلة حتّى كان ألبان في الزورق مع عدد من الشبان الذين كانوا في طريقهم إلى لندن للالتحاق بالجنرال ديغول حيث سيتمّ تدريبهم وإعدادهم لقادمات الأيام، بالإضافة إلى عدد من الأطفال والنساء اللواتي سبقهنّ أزواجهنّ إلى الضفّة الأخرى ولم يكن عندهم ما يربطهم بالمدينة ليبقوا فيها. لكن لا ألبان ولا موريس ولا حتّى الضابط الألماني كانوا على علم بما كان يحضّر في برلين!

في القارب الذي انطلق بعد منتصف الليل مرّت الساعات الأولى بهدوء منقطع النظير؛ الحراسة الألمانيّة مخفّفة، السماء صافية، حرّ الصيف يزيله ليل البحر ورطوبة جوّه، والصمت يلفّ المكان. وجهتهم الأولى هي بورنموث، أقرب موانئ البرّ الإنجليزي إليهم، ومنها ينتقلون إلى ساوثمبتون ثمّ إلى لندن، وكان يفترض أن يصلوا عند منتصف نهار اليوم التالي، وهذا ما حدث ولكن مع فارق غير بسيط، فلقد كادوا يموتون!

أصدر هتلر أمره لقوّاته بتدمير سلاح الجوّ البريطانيّ للسيطرة على سماء بحر المانش وجنوب إنجلترا تمهيداً لاجتياحها، فكأنّما تحوّل البحر إلى كتل من اللهب والجحيم. الطائرات تجوب أرجاء السماء كأنّها أسراب الطيور المهاجرة، وتغير من كلّ اتجاه على كلّ ما يتحرّك في مدى رؤيتها. في المقابل كانت الدفاعات الجوّيّة والبوارج البريطانيّة تحاول بمدافعها ومضاداتها ردّ الهجوم؛ ألسنة اللهب تتصاعد فوق مياه البحر كأنّها براكين تتفجّر، والصراع الجويّ والكرّ والفرّ بين طائرات الفريقين لا يتوقّف. إن كان من أمل في أن تساعدهم سفن الإنجليز وتيسّر لهم وصولهم إلى برّ الأمان فقد تبخّر، فلكلّ ما يشغله، وفوق هذا وذاك فقد أصبحوا هدفاً سهلاً لنيران الطائرات خاصّة وقد حميت شمس الصيف ولا مكان للاختباء فوق سطح الماء المكشوف. وفجأة، اهتزّ المركب بمن فيه.

انطلقت حناجر الأطفال بالصراخ، وهرعت الأمّهات يحاولن التهدئة من روعهم، أمّا الشباب فقد كان يلفّهم صمت مهيب. بيد أنّ قائد المركب أبدى شجاعة ومهارة منقطعتي النظير، فقد زاد سرعته قليلاً وانحرف يساراً محاولاً الابتعاد عن القذائف ونقاط الاشتباك، وكان

عندما تقترب الطائرات من سماء الزورق يقوده بشكل متعرّج وبهذا نجح في تفادي ثلاث أو أربع قذائف سقطت غير بعيد عنهم. وكان في الوقت عينه يحاول إرسال الرسائل اللاسلكيّة لعلّ سفينة من القوّات البحريّة الصديقة تكون قريبة منهم فتوجهّهم إلى الطريق الآمن أو تساعدهم على بلوغ غايتهم. ومضت الساعات المتبقّية ببطء شديد وكأنّها آخر لحظات العمر، وما إن وطأت أقدام الجميع اليابسة حتّى انهمرت دموعهم فرحاً بنجاتهم، وحزناً لغربتهم.

المهمّ أنّه وصل لندن، واستأجر شقّة يرتاح فيها ويحدّد خطواته القادمة. لم يكن الوقت وقت راحة بل وقت عمل. "إن كان هذا آخر يوم في حياتي فليكن حافلاً، وليغيّر وجه التاريخ!".

كان همّه الأول منصبّاً في اتجاهين: إتقان اللغة ولعب دور المخبر.

أمّا اللغة فقد اشترى عدداً من الكتب وانصبّ على قراءتها وتكرارها، وراح يتسمّع الأحاديث ويخالط المشرّدين فأوجه الشبه بينه وبينهم ستمنعهم من الشكّ فيه أو الانصراف عنه، فاستفاد منهم الكثير، ثمّ أخذ يتعلّم اللهجات ما وسعه ذلك.

وأمّا المخبر، فقد قرّر أن يلعبه لكن على طريقته. فقد رافق الشبّان إلى مقرّ الجنرال ديغول وأخبرهم أنّ مهمّته تنتهي هنا لكي لا يحاولوا الاتصال به أو البحث عنه. وكذلك أرسل إلى الألمان في شيربورغ، بواسطة جهاز إرسال صغير كانوا حمّلوه إيّاه، يخبرهم بعدد من قابلوا القائد الفرنسيّ وأعمارهم وشيئاً مما قالوا، وأشياء ممّا لم يفعلوا!

بعدها بأيام تواصل مع أحد أصدقاء موريس ليساعده في الحصول على بطاقة صحفيّ، فهي ستكون مفتاح دخوله لكثير من الأماكن الهامّة لتنفيذ مهمّته، فكان له ما أراد خلال يومين.

كان يتعمّد التجوال سيراً على الأقدام لكي يحفظ الضواحي والشوارع، وحتّى الأزقّة، ومع بداية شهر آب (أغسطس) كان قد تعرّف على أهمّ معالم المدينة والمراكز الحكوميّة وحتّى الثكنات القريبة والسجون. وراح يختار الأخبار الجديدة التي لم تتناولها وسائل الإعلام بعد، أو تلك التي تتريّث في نشرها، فيرسل بمضمونها إلى فرنسا. وبالرغم من أنّ هذه الأخبار لم تكن على قدر كبير من الأهمّيّة والخطورة، إلّا أنّها آتت أكلها، فمع التقرير السابع أو الثامن إلى القائد برجر، أتاه ردّ هذا الأخير بأنّ التواصل اعتباراً من الآن سيتمّ مع المركز مباشرة، وهذا

يعني أنّ الجهاز الذي يخفيه عنده لم يعد يصلح لضيق مداه، وعليه بالتالي التخلّص منه في أقرب فرصة، وسيتمّ إرسال التقارير من هذه اللحظة وصاعداً عبر عميل سرّيّ في وسط العاصمة العريقة. وكان هذا ما ينتظره، غير أنّ صعوبات أخرى ليست بالحسبان بدأت تواجهه... فقد أخذ النعاس يغالب عينيه!

"كل الناس ينامون، أو يحلمون بالنوم، وهم يستطيعونه. أمّا أنا، فلا. لا نوم ليلة، ولا قيلولة، ولا حتّى إغفاءة صغيرة وغمضة جفن... أيّ عذاب هذا!".

لم يكن خوف ألبان من الموت بقدر ما هو القلق من المجهول؛ ما الذي سيحلّ به إن هو استسلم للنوم؟ هل ستعود حياته إلى مجراها الطبيعي الذي كانت عليه قبل ستّة قرون، أم أنّها ستكون النهاية؟ هل بمقدوره أن يدافع النوم وهو الذي سلطانه على العيون لا يقاوم؟ ثمّ خطّته التي شرع ينفّذها... أيتركها تتهاوى وتطويها وإيّاه كفّ النسيان؟ كانت هذه التساؤلات وغيرها تعصف بذهنه فلا يجد لها جواباً، ولا تزيد رأسه إلّا صداعاً.

حاول المقاومة؛ كان يضع رأسه تحت الماء البارد، ويمشي ليل نهار ليبقى مستيقظاً، حتّى أنّه كان في بعض الأحيان يعرّض أصابعه للنار ويقصّ شيئاً من جلده، لكن إلى متى؟ في النهاية، قرّر الذهاب إلى صيدليّة لشراء أدوية وعقاقير منبّهة، فهي أمله الوحيد، وكلّه رجاء أن يجد فيها ضالّته، ولو إلى حين.

كانت صيدليّة تقع على بعد خطوات من باب المبنى حيث ينزل، ولكنّه فضّل الابتعاد لعدم لفت النظر وإثارة الشكوك. واختار لذلك واحدة أخرى تبعد نصف ساعة إلى الجنوب إن هو سار بخطّ مستقيم، ومع ذلك فقد تعمّد السير بشكل متعرّج لكي لا يعرف أحد من أين يأتي وإلى أين يذهب، خاصّة وأنّه الآن عرضة للمتابعة إن من طرف الألمان ليتأكّدوا من هويّته وولائه، أو البريطانيّين إن رأوه يرتاد أماكن مشبوهة أو حسّاسة، أو حتّى موريس الذي انقطع تواصله معه بعد وصوله بأسبوعين، وربّما من عملاء لحكومة فيشي، فهو لا يضمن أن يكون أحد الذين سافروا معه عميلاً مزدوجاً أو خائناً أو أحمق زلّ لسانه ففضح أمره وقادهم إليه. إنّ الحذر واجب إذ لا مجال للخطأ.

عاد الحظّ يبتسم لألبان، فلقد أجدى الدواء الذي اشتراه من الصيدليّة نفعاً؛ فها هي آلام الرأس تتبدّد والأجفان عادت إليها حيويّتها واستعادت العينان بريقهما، ولكنّ هذه الفعاليّة ستقلّ مع الأيّام، وسيضطّر لأخذ المزيد من الجرعات في أوقات متقاربة للبقاء يقظاً!

مع نهاية شهر آب (أغسطس) كانت العمليّات العسكريّة في فضاء المانش قد تقلّصت، ولم يتمكّن الألمان من تحقيق هدفهم منها، ولكنّ أحداً لم يكن يدري أنّ القادم سيكون أفظع.

في بداية شهر أيلول (سبتمبر)، سرت إشاعات مفادها أنّ الشرطة السرّيّة قد ألقت القبض على جاسوس ألماني كان يعمل ضمن فريق علميّ في إحدى أرقى جامعات لندن. كما جرى الحديث عن مقتل آخر كان قد هبط جوّاً في غابة صغيرة خارج العاصمة ولكنّه كان هبوطاً غير موفّق، فأصيب بالتواء في كاحله وخدوش في شتّى أنحاء جسمه، وعندما رآه بعض القرويّين شكّوا فيه وأخبروا الشرطة التي حاول رجالها القبض عليه فقاومهم فانتهى بهم الأمر أن قتلوه. إنّ حادثتين كهاتين في غضون أيّام قليلة لكفيلتان بالإنباء عن أنّ

جهاز مكافحة التجسّس لا بدّ وأنّه يعمل بأقصى طاقته، وهذا يعني وجوب مزيد حذر ويقظة، وسرعة في التصرّف كذلك.

عاد من جولته مساء ذلك اليوم وأخذ ورقة كتب فيها بالشيفرة الجديدة التي تعلّمها مجموعة من النقاط المهمّة المحدّدة، وكان فيها:

- استلمت اليوم رسالة ضوئية من أحد مصادري عبر شرفة سجن بونتونفيلّ مفادها أنّ العالم النمساوي موجود فيه، وأنّهم يحقّقون معه بقسوة.
- القاعدة الجوّيّة الرئيسيّة يتمّ نقلها سرّاً إلى أوكستد جنوب لندن.
- تشرشل ومجلس دفاعه المصغّر يديرون أعمالهم من مركز سرّيّ، تحت الأرض، محصّن تحصيناً جيّداً في إحدى مدن الشمال.
- تم نقل وحدة التصنيع الحربيّ إلى مكان ما في محميّة كوتسوولد.
- يتمّ تداول أحاديث عن سلاح قادم سيقلب موازين الحرب لصالح البريطانيين وحلفائهم.
- لقد تعرّضت للملاحقة قبل أيام. نجحت في التخلّص منها لكن ربّما كشف الوكر. سأقوم بتغيير مكان السكن إن تأكّدت الشكوك.

أعاد ألبان قراءة تقريره جيّداً، ثمّ طوى الورقة وخبّأها في طيّات جيب مخفيّ في ثنايا معطفه، وأخذ قارورة دواء وأفرغ نصفها هذه المرّة في جوفه، ووقف ينظر في المرآة ويتساءل عن حقيقته، عن سرّ وجوده، وعن دوره في الحياة.

تذكّر كلوتيلد وهي التي لم يكن لينساها، ولكنّ وطأة الحياة وتسارع وتيرة الحرب لا تترك في الذهن متّسعاً للذكريات والعواطف. وتذكّر جوليان، الرسّام الإيطاليّ الذي كان ذا فضل عليه كبير. وجان التي نصحته بالتوجّه إلى باريس ولندن، لقد كانت ذات فطنة واطلاع وبعد نظر رغم كلّ الظروف المحيطة بها. وتذكّر السياسيّ الفرنسيّ وتحليلاته، وتذكّر كلّ الحروب التي سمع عنها أو عاصر بعض تفاصيلها، ما بين ألمان ونمساويين وإيطاليين وإنجليز... أتراهم سيتوقّفون يوماً ما عن الاقتتال؟! حاول أن يضع تساؤلاته جانباً، وأن يحصر تفكيره فيما سيفعله في الأيام القادمة، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً بانتظار طلوع الشمس.

(19)

في قبضة رجال الأمن

"الخيّاط النمساويّ هو نقطة الاتصال. وما حانوته إلّا واجهة يبرّر بها تواجده في القلب من عاصمة البلاد التي كانت تحكم يوماً ما نصف العالم. لديه معلومات يخفيها تتعلّق بتحرّكات قريبة للرايخ الثالث. إنّه على صلة بعدد من العملاء؛ قليلون لكن فاعليتهم كبيرة. منهم من يعمل في مكتب أحد كبار الموظّفين الحكوميّين، وآخر يصادق وزوجته عائلات أرستقراطيّة من نبلاء وجنرالات فيستقون منهم معلوماتهم. أعرف أنّ كلاين هذا لا يثق بي كثيراً، خاصّة أنّي لم أعطه أجوبة شافية عن مصادري ولا عن كيفيّة تسلّلي إلى مكاتب الوزارات، لكن واجبه يحتّم عليه نقل ما أسلّمه من معلومات. وقد تعمّدت مؤخّراً مطالبته بالنقود، والمزيد من النقود، مع أنّي لست بحاجة ماسّة إليها ولكن لأصرف شكوكه ناحيتها، وليستفيد منها بعض من شرّدتهم هذه الحرب ودمّرت مساكنهم أو غيّبت ذويهم.

أمّا الخطوة الأخيرة، فلست أدري إن كانت ستمرّ مرور الكرام أم أنّها ستفتح بوجهي أبواب الجحيم، هذا ما ستكشفه لي قادمات الأيام".

كان ألبان يحدّث نفسه وهو يقوم بجولته الصباحيّة المعتادة، إذ لا بدّ له من المرور بعدد من النقاط الحسّاسة هذا إن لم يكن دخوله إليها. وأخذ يتذكّر التعليمات التي وصلته ليلة البارحة:

" إجتماع عاجل، ليفربول 1430".

كانت تعني أنّ الاجتماع سيكون في حانوت الخيّاط المقابل لمحطّة قطار أنفاق ليفربول عند الساعة الثانية والنصف ظهراً، لكن ما السبب يا ترى؟

وصل إلى المكان المحدّد قبل الموعد بدقائق، وسرعان ما راح يدور حوله ليعمّي وجهته عمّن يتتبّعه. وفي الموعد كان يقف وجهاً لوجه أمام فرانز ورجل آخر اسمه غاستون. لم يكن ألبان يعرف لقبه، أو إن كان هذا هو اسمه الحقيقي أم لا، كلّ ما يعرفه أنّه ضخم الجثّة مفتول العضلات، وأنّه لم يلتق به كثيراً من قبل. ولكن لماذا هم الثلاثة فقط؟ لم يتأخّر الردّ كثيراً فلقد بدأ فرانز الكلام:

فرانز: لقد جمعتكم اليوم لأني بحاجة إلى وضوح في الرؤية، فالمسألة لا تحتمل الخطأ. إنّ القائد الأعلى يجهّز لعمليّة كبيرة وهو يطلب مزيداً من التقارير الواضحة والشافية. فكلّ تقارير الأيّام العشرة الأخيرة مبهمة وعموميّة ولا تفي بالغرض.

غاستون: المعنى؟

فرانز: المعنى أنّي أطلب مزيداً من التفاصيل، من الضمانات والتطمينات. وإلّا فسأعتبر الأخبار غير المفصّلة أخباراً مدسوسة وسيكون صاحبها محلّ مساءلة.

غاستون: فليتكلّم الفرنسيّ.

ألبان: لست فرنسيّاً، ثمّ إنّي أعرّض نفسي للخطر أكثر منكم جميعاً.

أحسّ ألبان أنّ الاجتماع ربّما يكون للتخلّص منه أو لوقف التعامل معه على أقلّ تقدير، وهو يرجّح الاحتمال الأوّل، وإلّا فلماذا قام فرانز باستدعاء غاستون؟ "إن كان ولا بدّ فلأذهب بعيداً ولأقلب الطاولة عليهما".

غاستون: عن أي خطر تتكلّم. ظهرت قبل أسابيع قليلة ولم تقدّم مرّة واحدة تقريراً ذا قيمة، ولا ندري من أين تأتي بهذه الأخبار. نحن هنا منذ زمن، نعرّض أنفسنا للموت يوميّاً ولا نسمع بشيء ممّا تكتبه.

ألبان: ظهرت قبل أسابيع لأنّي كنت أعمل قبلها مع جهاز آخر، وأظهرت كفاءة أكثر ممّا تفعل أنت وزملاؤك مجتمعين، وإن لم تصدّقني فاطلب من قيادتك الاستعلام عنّي.

فرانز: دعونا من هذا الآن ولنبق في المهمّ. تقاريرك فيها دائماً شيء من الغموض، هل تملك تفسيراً لذلك؟

ألبان: الأمر أبسط ممّا تظنّنان، فأنا لا أنتظر تأكيد المعلومات وإنّما أرسلها حالما تصلني وأترك أمر غربلتها للمركز فهم أعلم منّي بالممكن والمستحيل مع البريطانيين، هذا من جهة. أمّا من جهة أخرى فعجلة الحرب لا تسمح بالتباطؤ بحجة تحرّي دقائق التفاصيل، فالغلبة لمن يتصرّف أوّلاً.

غاستون: وتمتلك الجرأة لتبرير أكاذيبك! عملك أن تمدّهم بالحقائق لا أن تضلّلهم.

ألبان: أنتم من يضلّل عندما تصلكم الأخبار فلا ترسلونها إلّا وقد فات الأوان، أنتم من يستحقّ العقاب لا أنا.

غاستون: أيّها الوقح، تتّهمنا نحن لتنجو بفعلتك.

ألبان: أنا لا أدافع عن نفسي يا هذا، أنا أدافع عن مصلحة وعظمة الرايخ. أنتم تتنعّمون في مصالحكم ورفاهيتكم وترسلون تقريراً أو اثنين في الشهر رغم أنّكم مدرّبون ومتمرّسون وآمنون. أمّا أنا الذي تطوّعت بملء إرادتي وتدرّجت في المهام وواجهت الصعاب لأجل الغاية الأسمى، أنا الذي أعيش مع عامّة الناس والضعفاء لأسمع صوت الشارع، ومع الصحفيين لأسمع ما يقال وما لا يقال، وأرتاد الأماكن الخطيرة طلباً لخبر هنا ومعلومة هناك، وأخيراً أتعرض للملاحقة ثمّ تتّهموني بنشر الأكاذيب! متى ظهر لكم أنّ تقاريري كاذبة؟ واجهوني بها إن كنتم صادقين. إن كنتم لا

تثقون بي فاطلبوا من القيادة إعفائي، أمّا أنا فسأعلم القيادة التي كلّفتني بكلّ شيء وسترون من منّا المخلص ومن المغرض.

غاستون: أيّها القذر، سأقطّعك إرباً... من أرسل يقول إن رئيس الوزراء يستعين بممثّلين يشبهونه ليعمّي علينا حركته؟ وأنّ عنده مكاتب محصّنة أسفل مبنى الحكومة بعمق عشرين قدماً تحت الأرض؟ ومن أين لك أن تصل إلى دائرة رئيس الوزراء لتعرف هذا كلّه؟

ألبان: أيّها الغبيّ، لست بحاجة إلى أن ترافق رئيس الوزراء طوال الوقت لتعرف ما يفعل. يكفي أن تتعرّف على واحد من شبيهيه أو مرافقيه. أو واحد من خصومه السياسيّين وسيتولّى نصف العمل نيابة عنك. أي عقول تملكون!

فرانز: كفى يا غاستون، إنّه محقّ. هو لم يتلقّ مستوى التدريبات التي تلقّيناها، وبالرغم من كلّ الضبابيّة التي تكتنف تقاريره إلّا أنّنا

لم نستطع إثبات كذب ولو واحد منها. سنعطيه فرصة أخرى وعليه هذه المرّة أن يكون أكثر وضوحاً.

ألبان: شكراً لك يا فرانز، وأعدك أنّك سترى منّي ما يسرّك، ليس هذا فحسب، بل إنّ لديّ حقّاً أخباراً جديدة على قدر كبير من الأهمّيّة، لكن استميحك عذراً فإنّي لن أناقشها أمام غاستون.

غاستون: لا أصدّق ما أسمع، نأتي لنضع النقاط على الحروف فيخرّب كلّ شيء ويتمادى في غيّه، وأنت تعذره يا فرانز! لا أستطيع تصديق ما أسمع.

فرانز: لا بأس، اذهب الآن إلى عملك ونلتقي ليلاً مع ماتياس والآخرين.

وخرج غاستون مغاضباً وهو يسبّ ويشتم، حتّى أنّه كاد يصطدم برجل واقف عند الباب، لاحظه ألبان لكنّه فضّل تجاهله في هذه اللحظة، ثمّ التفت إلى فرانز وقال بمكر:

- هل تظنّه سيشي بنا؟ إنّه جدّ غاضب وقد يفقد صوابه.

- من؟ غاستون! لا، إنّه من أكثر رجالنا إخلاصاً وتضحية، ولكنّ طول المهمّة واشتداد وطأتها جعلته عصبيّاً بعض الشيء. لا عليك منه وأخبرني بالجديد الذي لديك.

- هاك التقرير الذي أعددته. أعرف أنّك تحتاج تفاصيل أكثر وخاصة العناوين الدقيقة، لكنّي أعدك بأن أبذل جهدي للحصول عليها في الأيام القادمة.

- حسناً، هات لنرى... إنّها أخبار هامّة جدّاً، وإن كانت تنقصها العناوين التفصيليّة كما قلت. أرجو أن تكون واثقاً من كلّ ما في التقرير لأنّها ستغيّر مسار كثير من الأمور!

- كلّ الثقة، وستثبت لك الأيام القادمة صدق ما أقول.

- لا عليك، ولكن تعال ننظر في الخريطة لنحاول تضييق رقعة الأمكنة المشار إليها.

- لا بأس.

ومرّت دقائق كان الرجلان يتبادلان فيها الحديث حول المناطق محطّ الاهتمام ويضعان دوائر وإشارات على الخريطة التي أمامهما حتّى فرغا منها وهمّ ألبان بالانصراف، فالتفت إلى فرانز قائلاً:

- بخصوص الرجل الذي يتبعني، أظنّه عرف مسكني وعليّ بالتالي تغيير مكان الإقامة، وأنت تعرف الأسعار وندرة العرض في هذه الظروف...
- ما الذي تطلبه بالتحديد؟
- مبلغاً أتمكّن به من شراء شقّة في أحد الأحياء الثانويّة أو استئجار أخرى في حيّ راق. المهم سرعة الانتقال.
- حسناً، أنتظر طرداً سيتمّ إلقاؤه غداً على مقربة من لندن، وبعدها تأخذ نقودك.
- وأين سيتمّ إلقاؤه؟
- ولماذا يهمّك أن تعرف؟
- فقط لأرى إن كنت سأحصل على المال غداً أم لا.
- تعال غداً في نفس الموعد، ولا تنس أن تأخذ قسطاً من الراحة فعيناك حمراوان تشيان بشدّة تعبك وكثرة سهرك.
- سأفعل... إلى الغد إذن، في نفس الساعة.
- إلى الغد.

خرج ألبان وهو غير مصدّق أنّه نجا من هذا المأزق، بل المآزق العديدة، حتّى اللحظة الأخيرة! من الواضح أنّ فرانز لا يزال مرتاباً وإن كان يخفي شكوكه. ليكن، فإنّ هذا لن يطول.

وسار مبتعداً عائداً إلى شقّته. كان عليه أن يعبر النهر باتّجاه الجنوب ويمشي قرابة الساعة ليصل إلى مسكنه. تردّد لحظة؛ هل يستقلّ الحافلة هذه المرة أم يكمل طريقه سيراً على الأقدام. ثمّ خطرت له فكرة تتعلّق بالرجل الذي يتبعه... لم لا يداعبه قليلاً!

فجأة، وقد توسّط جادّة "جدار لندن"، وكانت شبه خالية من المارّة، استدار ألبان باتجاه صاحبه، وكانت هذه الحركة كفيلة بإرباك الرجل الذي أخذ يسعل ويخفي وجهه وأسرع يعبر الطريق بالاتجاه الآخر. ولم يتأخر ألبان فقد انعطف يميناً ثمّ يساراً ثمّ اختفى في الدهاليز قبل أن يكمل طريقه بهدوء، أمّا الذي كان يلاحقه فقد أضاع أثره وعاد يجرّ أذيال الخيبة!

في اليوم التالي عاد ألبان إلى حانوت فرانز، لم يطل معه الحديث فقد خشي أن يستدرجه الخبيث بالكلام، كان كلّ ما يعنيه أن يكون تقريره قد أرسل، وهذا ما أكّده له الخيّاط النمساويّ. ثمّ سأله بلهفة مصطنعة عن النقود فمدّ إليه يده برزمة كبيرة مغلّفة بورق أصفر اللون، فشكره وانصرف.

في الصباح الذي يليه، وكان يوم جمعة، فوجئ ألبان بعناصر الأمن والشرطة السرّية يقتحمون عليه شقّته ليفتشوها تفتيشاً دقيقاً وليقتادوه بعدها إلى مكتب التحقيق، ليبدأ فصلاً جديداً من هذه المغامرة المتشعّبة.

(20)

التحقيق

كان الضابط حازماً وواضحاً في أسئلته، وكان يبدو عليه أنّه يحاول أن يكتم غيظاً شديداً يتملّكه.

- منذ ساعة والمعاون لم يحظ منك بجملة واضحة مفيدة، أريد أن أعرف كلّ شيء عنك وعن الذين يعملون معك. وأريد تفسيراً واضحاً لعدم امتلاكك أوراقاً شخصيّة تثبت هويّتك، اللهم إلّا بطاقة صحفيّ حرّ تحمل الاسم الأوّل فقط!

- قلت لمعاونكم وأقول لكم؛ اسمي ألبان. أضعت أوراقي قبل أيّام ولم أبلّغ عن سرقتها أو فقدانها لأنّي ظننتها في مكان ما في الشقّة حيث أسكن. وأمّا البطاقة فأنا فعلاً صحفيّ مستقلّ، أعمل بمفردي وأقدّم خدماتي للصحف المهتمّة بها.

- أين هي هذه الصحف؟ إنّ أيّاً من رؤساء تحرير الصحف الكبرى وحتّى المحلّيّة لم يتعرّف عليك.

- هذه مشكلتهم.

- لا تحاول استغباءنا فنحن نعرف كلّ شيء. إن أردت الحفاظ على حياتك فعليك بالتعاون والإفصاح عن كلّ ما لديك.

- ما دمتم تعرفون فلماذا تسألونني!

ازداد حنق الضابط بعد هذه الكلمات. إنّ غياب الأدلّة رغم تفتيش غرفته الدقيق لا يساعد على إثبات التهمة. ثمّ إنّ الذي دلّهم عليه رجل من عامّة الناس وليس مخبراً رسميّاً، وبالتالي فشهادته في القضيّة لا تعتبر ذات وزن كبير. أخذ التقرير الذي أعدّه رجاله في الصباح وأجال نظره فيه بسرعة ثمّ نظر إلى ألبان مستغرباً:

- قطع نقدية من حقب مختلفة، بعضها يعود إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر! وخنجر قديم الطراز "جدّاً" بحالة ممتازة... لا بدّ أنّك من هواة جمع الآثار.

- إن أردت ذلك.

- حتّى هذه لا تستطيع الإجابة عنها بوضوح، يبدو أنّ تحقيقاتنا معك ستطول.

- يا سيّدي لا شيء عندي أقوله.

- سنرى ذلك... كيف تفسّر وجود كمّيّة كبيرة من علب البيمولين حيث تقيم، وماذا فعلت بالكمّيّة المستهلكة؟
- تناولتها.
- كلّها!
- كلّها.
- أنت إمّا كاذب وإمّا مجنون.
- مجنون إذن.
- وأين ذهبت النقود.
- أيّ نقود.
- تلك التي تسلّمتها من الخيّاط النمساوي... ما كان اسمه؟ ها هو ذا، فرانز كلاين.
- لا أملك نقوداً غير التي وجدتموها معي.
- كيف إذن تسدّد إيجار شقّتك؟
- من المقالات التي أبيعها للصحف.
- ها نحن نعود من حيث بدأنا... حسناً، قل لي إذن أيّها "الصحفيّ"، هل أنت ألمانيّ؟

- لا.

- نمساوي.

- لا.

- فرنسي، إيطالي، بلجيكي..؟

- لا شيء من هذا كلّه.

- من أين أتيت إذن، فإنجليزيّتك تدلّ على أنّها ليست لغتك الأمّ.

- من الشرق.

- أين تحديداً؟

- لا يهم، بالنسبة لي أنا إنسان أتيت من الشرق، الحدود والأنظمة تتغيّر، أمّا إنسانيّتي فثابتة.

- وفيلسوف أيضاً! قل لي إذن، من برأيك أفضل، نحن أم هتلر؟

- إن كان لجهة استغلال الضعفاء وقهرهم فكلّكم سواء، تتغنّون بالحضارة والحرّيّة والتقدّم في حدود بلادكم، ثمّ تخالفون كلّ الشعارات البرّاقة في أراضي ما وراء البحار ليظهر الطمع والجشع والسطوة والظلم. أمّا لجهة نظام الحكم، فالحرّيّة عندكم وإن

كانت استنسابيّة فإنّها تبقى أفضل ألف مرّة من استبداد هتلر والنازيين.

- وهل يسرّك أن نهزمه في الحرب؟
- يسرّني أن تتوقّف الحرب وأن يعمّ السلام الأرض.
- عدنا للمتاهات مجدّداً... ستبقى في السجن حتّى تغيّر رأيك فتبوح بما لديك، أو أنّنا سنضطرّ لاستخدام أساليب لا تعجبك.

وقبل أن يأمر بصرفه، استأذن أحد العناصر وقدّم له تقريراً عاجلاً. وما هي إلّا لحظات حتّى كان المحقّق يقف غاضباً رامياً الأوراق من يده وضارباً الطاولة بعنف وهو يصرخ:

- هرب.. لقد هرب منكم هذا النمساويّ! كيف هرب، ومن ذا أخطره بتحرّكنا؟ هل تريدون أن تقولوا لي أنّ لهتلر رجالاً بيننا هنا يعملون لصالحه!
- إنّه خطؤكم.
- عذراً... هل تفوّهت بشيء؟
- إنّه خطؤكم، رجلكم كان مفضوحاً كفاية ليدرك وجوده حتّى الطفل المطارد. ولا بدّ أنّ فرانز أحسّ به فأسرع يتوارى عن الأنظار.

- أيّ رجل هذا؟ لم نكلّف أحداً من العملاء السرّيّن بمتابعته. والشرطيّ الوحيد الذي كان مكلّفاً بإبقاء العين مفتوحة عليه لم يظفر ولو بممسك واحد، على الرغم من تردّده عليه يوميّاً. أين ذهب، أجبني بسرعة.
- لا أعرف، لكن عميلكم هذا لم يكن بلباس الشرطة.
- عن أيّ عميل تتحدّث؟
- أحد الذين كانوا يراقبونني. ألم تقولوا لي أنّكم تعرفون كلّ شيء، أنتم إذن من تسبّب بهرب كبير الجواسيس.
- لم نكلّف أيّاً من رجالنا بمطاردتك، فلقد كنت مجهولاً لدينا حتّى البارحة.
- اسألوا إذن من دلّكم عليّ.
- إنّه هو، لا بدّ أنّه هو... ذلك الأحمق توماس رايت. لماذا سمحت له بدسّ أنفه في هذه القضيّة... لكن لا بأس، ستعترف أنت بكلّ شيء.

نهض المفتّش وهو ينادي على الحرّاس ليأخذوا ألبان إلى السجن وعاد هو إلى مكتبه. في المساء كان تقرير جديد بين يديه يضمّ

تفاصيل عمل المجموعة التي داهمت حانوت الخيّاط ماير صباحاً. كانت العناصر تنتشر متخفّية في المكان، ولكنّ الشمس ارتفعت إلى كبد السماء ولم يظهر ماير بعد على غير عادته. إنّها المرّة الأولى التي يتأخّر فيها عن فتح أبواب حانوته منذ أن استقرّ هنا قبل سنتين، وهذا ما أكّده العريف آش عندما استدعاه قائد المجموعة لسؤاله. عندها أصدر هذا الأخير أوامره باقتحام المكان، وجدوا المكتب وقد أفرغت أدراجه وبعثرت بعض المحتويات كأنّما أراد صاحبها أن ينتزع منها أشياء على عجل. كانت هناك غرفة صغيرة فيها ثياب معلّقة تخفي خلفها جهاز إرسال لاسلكيّ تمّ تخريبه حديثاً. وفي دورة المياه وجدوا مزقاً من الأوراق المحروقة.

ما لفت نظر الضابط الإنجليزيّ هو أنّ من بين هذه الأوراق ورقة لم تكن احترقت بشكل تام، وهذا يدلّ أوّلاً على أنّ ماير كان على عجلة من أمره فلم يكن يستطيع الانتظار ولو لدقائق ليتأكّد من احتراق كلّ شيء تماماً. والأهمّ أنّ بقايا هذه الورقة كانت نصّ رسالة مكتوب على طرفها بالألمانيّة ما معناه "تقرير رقم 30940، العميل الصحفيّ".

كان التقرير مشفّراً، فأمر بإرساله إلى الدائرة المختصّة بحلّ هذا النوع من التشفير وشدّد عليهم بضرورة الانتهاء منه ولو استغرق ذلك الليل كلّه، وظلّ منتظراً في مكتبه حتّى منتصف الليل. وحين دخل عليه مساعده بنتائج الفريق المختصّ ازدادت حيرته... لقد كانت معلومات مغلوطة، بل ومضلّلة. قرّر أن يواجه سجينه بها، ولكنّه كان يعاني الجوع والإرهاق والنعاس الشديد، فقرّر تأجيل المواجهة حتّى الصباح وانصرف إلى بيته.

في هذه الأثناء، وكانت قد مرّت عشرون ساعة منذ أن أخذ ألبان المنبّهات آخر مرّة، كان مفعولها قد زال كلّيّاً... وهاجمه النوم كوحش مفترس، أو كدبّ متوحّش جائع! فكّر في مقاومته، ثمّ عدل عن هذه الفكرة.. تمدّد مغمضاً عينيه، مستجمعاً ذكرياته الجميلة مع كلوتيلد وأيّامهما السعيدة معاً... لقد آن له أن ينام مرتاح البال والضمير فقد أدّى واجبه، وبذر البذرة، ولا عليه ألّا يرى الثمرة. واستسلم لنوم عميق جدّاً.. جدّاً.. جدّاً.

(21)

النهاية

في الصباح، كانت الطائرات الألمانيّة تدكّ العاصمة البريطانيّة دكّاً لم تشهد له مثيلاً من قبل. واستمرّ القصف والدمار طيلة شهرين دون انقطاع تحوّلت معه العاصمة العريقة إلى أنقاض.

كان الذهول سيّد الموقف في كافّة الدوائر الحكوميّة والمدنيّة، وخاصّة في اليوم الأول من الهجوم الذي أمر هتلر بشنّه بعد أن فشل في فرض سيطرته على المانش وفي هزيمة القوّات الجويّة الملكيّة. بدأ هذا الهجوم يوم السبت، السابع من أيلول (سبتمبر)، وكانت حدّته تختلف من يوم لآخر، ولكنّه حفر في ذاكرة المدينة صوراً لا تنسى. كانت الصدمة تسيطر على المحقّق الشاب، الذي استغلّ ساعة هدوء نسبيّ وأسرع إلى مقرّ عمله.

كان المقرّ قد دمّر بشكل جزئي، وكان رجال الإطفاء يحاولون السيطرة على الموقف دون نتيجة، وسيّارات الإسعاف تهرع في كلّ

اتجاه وصوب. دخل بسرعة واتّجه رأساً إلى غرف حجز المتّهمين، ولكن ما كان يخشاه كان قد وقع؛ فالحجرة التي كان يقبع فيها ألبان كانت قد سقط أحد جدرانها وسجينه لا أثر له؛ هل هرب، أم تراه تحوّل إلى أشلاء، أم هو يرقد على سرير في رواق مستشفى من المستشفيات؟ كان هذا سؤالاً لم ولن يجد له جواباً قطّ.

عاد يجمع أوراقه ويحمل ما سلم من الملفّات المهمّة التي لا بدّ من المحافظة عليها... وعندما استقرّ عملهم مجدّداً، كان يرفع تقريراً إلى مسؤوليه يقترح فيه تخصيص مكتب للعملاء المزدوجين، الأمر الذي سيكون له بالغ الأثر في حسم نتيجة الحرب بعد سنوات.

~ تمّت ~

«... في يوليو من العام 1939، اعترفت قيادة المخابرات البريطانية بأهمية العملاء المزدوجين، وكان من أقدمهم وأنفعهم سنو، منه تعلّمنا الكثير عن جهاز المخابرات الألماني ووسائله، وتمكّنا بفضله من إلقاء القبض على كثير من الجواسيس الألمان الأقل قيمة، وحوله بنينا هيئة مكافحة التجسس. لقد كان في الحقيقة أساس كل أعمالنا خلال السنوات التسع التالية. (...) تايت نفسه اعترف خلال التحقيق، وتحول إلى عميل مزدوج، وبدأ تواصله مع الألمان منتصف أكتوبر (...) أصبح واحداً من أهمّ عملاء الاتصال الموثوقين، وحافظ على سجلّ رسائله المتبادلة مع هامبورغ من أكتوبر 1940 ولغاية مايو 1945. كان عمله ذا قيمة كبيرة، لجهة محاربة التجسس أولاً ولجهة التضليل ثانياً، كما وكان أداة في تأمين مبالغ كبيرة من المال من الألمان... ».

جون ماسترمان

من كتابه The double-cross system

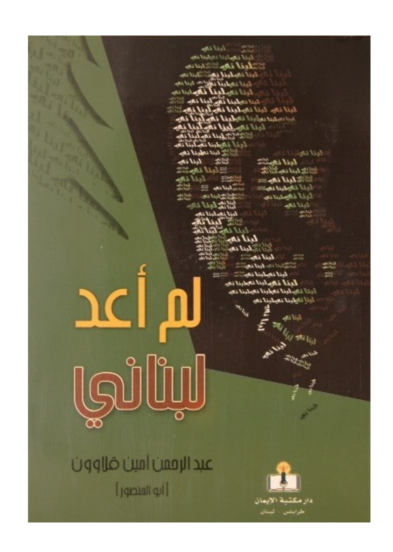
«... نرى الحكومة الفرنسية تمارس حقّها على الأعراق الدنيا بالمضيّ في محاربتها وحملها بالقوة على تبنّي مزايا الحضارة. أعراق عليا! أعراق دنيا! (...) لا، لا يوجد حقّ لما يسمّى بالأمم المتفوقة على ما يسمّى بالأمم الأدنى؛ (...) أما عن ارتقائنا في الحضارة، فيجب أن نبقيه في إطار الحق والعدالة؛ دعونا من إلباس العنف نفاقاً لباس الحضارة؛ دعونا من الكلام عن الحقّ وعن الواجب! إن الفتح الذي تنادون به ما هو إلّا استعمال مفرط للقوة التي منحتها الحضارة العلمية ضدّ الحضارات البدائية، لتطويع الإنسان، لتعذيبه، ولاستخراج كل القوة التي بداخله خدمة لمن يدّعي تحضيره... ».

جورج كليمنصو، 1885/07/31

من خطابه أمام مجلس النوّاب الفرنسي

الفهرس

صدر للمؤلّف



لم أعد
لبناني
عبد الرحمن أمين قلاوون
[أبو المنصور]
دار مكتبة الايمان



إملأ كؤوسك من دمي
عبد الرحمن أمين قلاوون
أبو المنصور



ديوان شعر
ما بين الظلمة و النور
أبو المنصور



حكايا المشرقي
أبو المنصور



ألبان، حطاب بسيط من قرية في جبال الألب وسط أوروبا في بدايات القرن الخامس عشر، يجد نفسه وجهاً لوجه مع دب شرس في محاولة لمساعدة راع وابنته ثم تكتب له النجاة لكنّ سلسلة من الأحداث ستترتب على هذا اللقاء وستظهر آثاره على امتداد الزمان والمكان ما بين إيطاليا في عصر النهضة مروراً بفرنسا وصولاً إلى المملكة المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية. الكثير من التفاصيل المثيرة والمحطات التاريخية تنتظركم في طيات هذه الرواية الشيقة فلا تضيّعوها.



ISBN 978-2-9568172-4-6